موقع الدراسات
القبطية والأرثوذكسية

د. جورج حبيب بباوي

التمييز والإفراز

دعوةُ المسيح يسوع لحياةٍ جديدةٍ حسب النعمة

www.coptology.com

Coptology

التمييز والإفراز

أو

دعوةُ المسيح يسوع لحياةٍ جديدةٍ حسب النعمة

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١١

www.coptology.org

جدول المحتويات

على سبيل التقديم ٦
تمهيد... ٩
تمييز الأمور المتخالفة ٩
المسيح يدعونا إلى تعلم الإفراز ٩
تمييز الأمور المتخالفة.................................... ١٢
الفصل الأول... ١٣
غاية القانون الكنسي ١٣
تحول الشخص إلى شيء ١٣
الإنسان لم يُخلق من أجل السبت ١٤
ميزان التمييز المقلوب ١٦
القاعدة الأولى للتمييز..................................... ١٨
القاعدة الثانية للتمييز ٢٢
القاعدة الثالثة للتمييز.................................... ٢٧
القاعدة الرابعة للتمييز.................................... ٢٨
الفصل الثاني ٣٠
التدبير الروحي ٣٠
الإفراز كما تحدده الليتورجية: ٣٢
الفصل الثالث.. ٣٦
سلاح اللغة وقواعد النحو ودوره في صياغة الهرطقة ٣٦
كيف نميز – بأرثوذكسية وتقوى مسيحية – مكان اللغة في اللاهوت؟ ٣٧
الروح فوق الحرف حسب كتاب الروح القدس للقديس باسيليوس:........... ٤١
أولاً: التجسد يعلن إرادة واحدة للثالوث: ٤١
ثانياً: العبادة مفتاح الأسفار: ٤٣

ثالثاً: كيف غيَّر تجسد ابن الله معاني الكلمات والأرقام: ٤٤
الفصل الرابع ٤٦
تمييز معاني الكلمات والأرقام ٤٦
أولاً: دور الإفخارستيا.. ٤٦
ثانياً: تحول الرسوم *Images* بسبب فيضان النعمة:.......................... ٥١
ثالثاً: تحول العلاقات: ٥١
المبادئ اللاهوتية التي تميِّز المعمودية المسيحية عن المعمودية الأريوسية: ٥٦
تغييرٌ تامٌ للرموز: ٥٧
طقوس يوم الكفارة: ٥٨
الفصل الخامس.. ٦٠
تمييز نعمة الروح القدس ٦٠
مثال معاصر: ٦٠
التمييز من خلال كتاب الروح القدس للقديس باسيليوس ٦١
هل التمييز بين الروح القدس والمواهب، تمييزٌ صحيح يقود إلى حياة الشركة مع الله، أم تمييز باطل ينفي هذه الشركة؟ ٦٤
هل يمكن الفصل بين الروح القدس والنعمة والمواهب؟ ٦٦
الفصل السادس ٧٧
تمييز حدود علاقتنا مع اللّه.................................. ٧٧
غاية الحياة الروحية الأرثوذكسية: ٧٩
حدود علاقتنا بالله حسب قواعد الإفراز طبقاً لرسائل القديس أثناسيوس إلى سيرابيون: ٨٢
القاعدة الأولى: "الله ليس مثل الإنسان" ٨٣
القاعدة الثانية: الثالوث واحد، وله نعمة واحدة وعمل واحد ٨٣

الفصل السابع ٨٥
معيار الصواب والخطأ في شركتنا مع اللّه ٨٥
أولاً: تجسد الحق...................................... ٨٥
ثانياً: تجسد الحياة ٨٦
ثالثاً: الحق والحياة كفكرة وكممارسة ٨٧
رابعاً: تمييز عناصر الشركة في الطبيعة الإلهية....................... ٩٠
ما هي عناصر الشركة في الطبيعة الإلهية؟........................... ٩٠
خامساً: النعمة غير المخلوقة ٩٣
الفصل الثامن ٩٧
تمييز الحق والباطل على أساس شخص وعمل المسيح ٩٧
المسيح هو الملء....................................... ٩٧
أولاً: في المسيح كوسيط.................................. ٩٨
ثانياً: أن نكون "في المسيح" لحياة ووجود جديد: ٩٩
ثالثاً: وحدة المؤمنين في المسيح ١٠٠
رابعاً: نحن مِلكٌ المسيح والمسيح مِلكٌ لنا........................ ١٠٠
خامساً: المسيح فينا ١٠١
فيض النعمة بالنعمة ١٠٢
الموت عائل الخطية.................................... ١٠٣
الموت عائل الخطية في الليتورجية الأرثوذكسية...................... ١٠٦
وهم القرن العشرين: ١١٠
الجناز العام في يوم أحد الشعانين............................ ١١١
الفصل التاسع... ١١٢
تمييز دور الموت.................................... ١١٢
القاعدة الأولى للتمييز: لا يجب الاجتهاد بالرأي في حالة غياب نص صريح
واضح في الكتاب المقدس. ١١٢

الفرق بين كلمة "خطية"، وكلمة "خاطئ" ١١٣
القاعدة الثانية للتمييز: "مرةً واحدةً" تؤكد سيادة الحياة على الموت ١١٥
انتصار الرب على الموت في تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس ١١٨
موت الرب على الصليب كما شرحه القديس أثناسيوس ١١٩
إبادة الموت بواسطة الوسيط: الفرق بين الشرق والغرب ١٢٢
سيادة قانون أو شرعية الموت.. ١٢٤
الدين المُطالَب به الجميع ١٢٦
قدَّم الابنُ جسده للآب وللموت معاً.. ١٣٠
الموت والنعمة ١٣٤
المسيح حياة الكل... ١٣٦
جسد آدم الجديد أو آدم الثاني.. ١٣٩
الفصل العاشر.. ١٤٢
تمييز معاني المغفرة.. ١٤٢
أولاً: الشفاء: ١٤٢
ثانياً: الاستنارة العقلية أو الروحية ١٤٣
ثالثاً: المصالحة مع الله:.. ١٤٤
رابعاً: الطهارة والتطهير:.. ١٤٥
جهلٌ أم استبداد؟ ١٤٥
الصليب راية المحبة ١٤٦
الصليب يتحدى الوثنية ١٤٧
الوسائل السبعة لمغفرة الخطايا كما شرحها العلامة أوريجينوس في عظاته على سفر اللاويين.. ١٥٠

على سبيل التقديم

"قال القديس أبّا موسى في حديثه مع أبّا يوحنا كاسيان في شيهيت: أذكر أنه في حداثتي لما كنت في الصعيد حيث يسكن الطوباوي أنطونيوس، أن جاء إليه الشيوخ يسألونه عن الكمال، ورغم أن الحديث امتدّ من المساء حتى الصباح التالي؛ إلاَّ أنَّ الجزء الأكبر من الليل انقضى في هذا السؤال وحده؛ لأنهم تباحثوا فيه بإسهابٍ، وهو: أيةُ فضيلةٍ أو نظام رهباني يحفظ الراهب بلا مضرّةٍ من فخاخ وضلالات الشيطان، وتصعد به هذه الفضيلة في طريقٍ مأمونٍ صحيح بخُطىً ثابتةٍ إلى قمم الكمال؟

وقال كل واحدٍ منهم رأيه حسبما يعتقد. فالبعض اعتبر أنّ الكمال كائنٌ في الصوم والسهر بغيرةٍ، فالنفس التي تكون قد انسحقت بهما واكتسبت نقاوة القلب والجسد يسهل عليها الاتحاد بالله. وآخرون اعتبروا الكمال متوقِّفًا على احتقار أمور هذا العالم حتى إذا تجرّد الذهن تمامًا يقترب بغير عوائق من الله، إذ لن تُربكه فيما بعد أيّة فخاخ شيطانية.

وآخرون رأوا أنّ الحاجة الضرورية هي إلى البعد عن العالم أي التوحُّد وحياة النسك الخفيّة، إذ أنّها هي الحياة التي يتهيّأ فيها الإنسان أكثر للشركة مع الله والالتصاق به على وجهٍ خصوصي. بينما أكّد البعض أنّ الكمال هو في إتمام واجبات المحبة أي ممارسة أعمال الرحمة، لأنّ الرب وعد في الإنجيل أن يهب الملكوت لهؤلاء بالذات عندما قال: "تعالوا إليَّ يا مباركي أبي رثوا الملك المعدّ لكم منذ تأسيس العالم، لأنّي كنتُ جوعانًا فأطعمتموني، كنتُ عطشانًا فسقيتموني ..." (مت٢٥: ٣٤ - ٣٦). وعلى هذا المنوال ظهر أنه بواسطة فضائل مختلفة يمكن للإنسان إلى حدٍّ ما أن يتقرَّب إلى الله.

فلما عبر الجانب الأكبر من الليل في هذه المناقشة، تكلّم أخيراً الطوباوي أنطونيوس وقال: "كل ما ذكرتموه نحتاج إليه حقًّا وهو معينٌ للمتعطّشين إلى الله والمشتاقين للاقتراب إليه، إلاّ أنّ حوادث كثيرة وخبرة الكثيرين علّمتنا أنّ أهم المواهب ليست كائنة في هذه الفضائل. فقد يكون البعض جادّين في الصوم أو السهر بحرارةٍ ومنقطعين بشجاعةٍ للتوحد وقد اتجهوا إلى التجرُّد مما لهم إلى أقصى درجةٍ حتى إنهم لا

يحملون همّ طعام يومٍ واحدٍ أو بقاء فلسٍ واحدٍ معهم، ويتمّمون كل واجبات المحبة بمنتهى الإخلاص، وإذ بنا نجدهم يُخدَعون فجأةً حتى إنهم لا يكمّلون العمل الذي بدأوه إلى غايته الصحيحة، بل بغيرتهم الشديدة وحياتهم التي تستحق المديح يبلغون إلى نهايةٍ مرعبة.

لذلك يمكننا أن نتعرّف بوضوح على الطريق المؤدّية بنا إلى الله مباشرةً إذا تتبّعنا بعنايةٍ، علّة سقوطهم وانخداعهم. فعندما تتوافر فيهم الفضائل التي ذكرتموها بغزارةٍ يعوزهم شيءٌ واحد فقط وهو **الإفراز**، لذلك لا يتمكّنون من المثابرة إلى النهاية، كما لا يمكنهم اكتشاف علّة سقوطهم لأنهم لم يتعلّموا من شيوخهم كما يجب، فلم يكتسبوا صحة الحكم على الأمور ولا الإفراز الذي يعلّم الراهب ألاّ يتطرّف في سيرِهِ، بل يتخذ الطريق الملوكي، فلا ينتفخ ويتكبّر بالانحراف في طريق الفضيلة يمينًا، وذلك بالاندفاع الأعمى في جسارةٍ غبيةٍ إلى درجة تخطِّي حدود الاعتدال المطلوب، ولا الانحراف يساراً بأن يرتاح إلى التواني متظاهرًا بضبط الجسد فيزداد بالعكس تراخيًا إلى أن يبلغ إلى روح الفتور.

لأنّ هذا هو الإفراز الذي عبّر عنه الإنجيل بـ "العين" و"سراج الجسد" حسب قول المخلّص: "سراج الجسد هو العين، فإن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيّرًا، ولكن إن كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلمًا" (مت٦: ٢٢و٢٣). فالعين إذ تميّز أعمال الناس وأفكارهم، فهي ترى وتفحص كل الأمور التي ينبغي عملها، ولكن أيّ إنسان إن كانت عينه شريرة أي غير محصّنة بالمعرفة والحكم السليم أو مخدوعةً بأي خطأ أو تهوُّر، فإنّ جسده يصير كله مظلماً، أي أنّ رؤيته العقلية وكل أعماله تصير مظلمة لأنها تكون غارقةً في ظلمة الرذائل وضباب الاضطرابات، لأنه يقول: "إن كان النور الذي فيك ظلاماً فالظلام كم يكون" (مت٦: ٢٣)؟

فلا يشكّ أحدٌ أنه عندما يكون حكم القلب خاطئاً وغارقاً في ليل الجهالة، فإنّ أفكارنا وأعمالنا الناتجة عن عدم التأنّي وتشاور الفكر والإفراز تكون حتماً غارقةً في ظلمة خطايا أعظم[١].

---

(١) فردوس الآباء، الجزء الأول، الطبعة الأولى ٢٠٠٥، ص ٥٤ – ٥٦.

فالتمييز هو الذي يقود الإنسان الشجاع بخطوات ثابتة نحو الله ويحفظ له دوام سلامة الفضائل المشار إليها بغير سأم حتى تبلغ أقصى ذروة الكمال، وبدونه لا يمكن الوصول إلى مرتفعات الكمال مهما كان الجهاد بكل رغبة. **فالتمييز هو أُم كل الفضائل وحارسها ومنظِّمها**"[١].

(١) راجع مناظرات يوحنا كاسيان مع مشاهير آباء البرية – كنيسة مار جرجس باسبورتنج – الطبعة الثالثة ١٩٨٥- ص ٣٦ - ٤٧.

تمهيد

تمييز الأمور المتخالفة

سيدي القارئ أينما كنت .. هذه دراسة موجزة، تقدم أهم ما تميَّزت به الأرثوذكسية وهو الممارسة، والممارسة هي الإيمان الأرثوذكسي، والصلاة والصوم، والأسرار. وتجمع الصلوات الليتورجية كل هذه معاً في نسيج واحد حسب القاعدة الرسولية التي دونها القديس إيرينيئوس "**نحن نصلي ما نمارسه ونمارس ما نصليه**". وأيضاً "**نحن نعترف بما نمارسه وما نمارسه هو ما نعترف به**". وهكذا نحن نمارس الإفراز أو التمييز. وما نراه في حياتنا العقلية ليس إلاَّ انعكاساً لما استقر في قلوبنا وعقولنا وأجسادنا، أي فينا، في كياننا الإنساني من صلوات وطقوس وعقيدة والحان وصوم ونسك.

هذه الدراسة عن أسس الإفراز أو التمييز، أي القواعد والأصول. وهذه الأسس أو القواعد أو الأصول مدونة كلها في الليتورجية أي صلوات الكنيسة الأرثوذكسية وفي كتابات الآباء.

المسيح يدعونا إلى تعلم الإفراز

نرجو أن يجعل ربنا يسوع المسيح الذي جاء كمخلص وفادٍ وربٍ، ومعلمٍ، أن يعلمنا كيف نميِّز، فقد عاتب الفريسيين بقوله: "يَا مُرَاؤُونَ! تَعْرِفُونَ أَنْ تُمَيِّزُوا وَجْهَ السَّمَاءِ وَأَمَّا عَلاَمَاتُ الأَزْمِنَةِ فَلاَ تَسْتَطِيعُونَ!" (متى ١٦: ٣). وعندما أخذ بنو إسرائيل الشريعة من موسى كانت غاية الشريعة هي معرفة مشيئة الله. ويقول الرسول بولس معاتباً بني إسرائيل: "هُوَذَا أَنْتَ تُسَمَّى يَهُودِيّاً وَتَتَّكِلُ عَلَى النَّامُوسِ وَتَفْتَخِرُ بِاللَّهِ. وَتَعْرِفُ مَشِيئَتَهُ وَتُمَيِّزُ الأُمُورَ الْمُتَخَالِفَةَ مُتَعَلِّماً مِنَ النَّامُوسِ. وَتَثِقُ أَنَّكَ قَائِدٌ لِلْعُمْيَانِ وَنُورٌ لِلَّذِينَ فِي الظُّلْمَةِ. وَمُهَذِّبٌ لِلأَغْبِيَاءِ" (رو ٢: ١٧ - ٢٠). بل صلَّى الرسول بولس طالباً من الرب

يسوع المسيح أن يعطي التمييز للمؤمنين في فيلبي: "وَهَذَا أُصَلِّيهِ: أَنْ تَزْدَادَ مَحَبَّتُكُمْ أَيْضاً أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ فِي الْمَعْرِفَةِ وَفِي كُلِّ فَهْمٍ، حَتَّى تُمَيِّزُوا الأُمُورَ الْمُتَخَالِفَةَ، لِكَيْ تَكُونُوا مُخْلِصِينَ وَبِلاَ عَثْرَةٍ إِلَى يَوْمِ الْمَسِيحِ، مَمْلُوئِينَ مِنْ ثَمَرِ الْبِرِّ الَّذِي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ لِمَجْدِ اللهِ وَحَمْدِهِ" (فيلبي ١: ٩ – ١١). وقد وردت عبارة "الأمور المتخالفة" في أقدم ترجمة عربية للعهد الجديد كما يلي: "وأني أصلي هذا أن يكثر ويتفاضل حبكم للعلم ولكل فهم روحي لتكونوا تميزون الأمور التي تصلح"(١). إذن فـ "ما يصلح" هو الميزان الدقيق الذي يجب أن يوزن به ما يختلف فيه الناس.

مثال معاصر:

أثناء إعداد هذه الدراسة للنشر، كتب الدكتور مصطفى محمود مقالة في جريدة الأهرام ٢٣ مارس ١٩٩٧، تحت عنوان "عبادة الشيطان أصلها عبري" ونقل ملاحظة من الترجمة الفرنسية الموحدة أو المسكونية تقول إن كلمة "عزازيل" ربما تعني "شيطان القفر". ومن هذه الملاحظة قفز د. مصطفى محمود كعادته إلى أمور أخرى. ومع أن نص سفر اللاويين (١٦: ١٥ – ٢٨) حينما يشرح ذبيحة يوم الكفارة، وطقوسها يقول "ويرسله بيد من يلاقيه إلى البرية" (١٦: ٢٢)، وبالتالي لا يذكر النص أن التيس الحي يقدم إلى الشيطان، بل يُطلق "حياً" إلى البرية، ثم يقول بعد ذلك "والذي أطلق التيس إلى عزازيل يغسل ثيابه ويرحّض جسده بماء" (١٦: ٢٦) أي أنه تنجس لاقترابه من حيوان يحمل رمزياً خطايا بني إسرائيل، مما يؤكد أن الذبيحة لا يمكن أن تكون مقدمة للشيطان؛ لأن الكتاب المقدس لا يطلق على الشيطان اسم عزازيل، وليس لهذه الكلمة أي علاقة بالكلمة الشائعة "عزرائيل" أي "ملاك الموت" الذي لا وجود له في الكتاب المقدس، بل في القصص الشعبية غير المسيحية.

ومع أن الشريعة الموسوية تؤكد – بنصوص قاطعة – أن ممارسة السحر والعرافة هي عمل مضاد لله بنص صريح: "مَتَى دَخَلتَ الأَرْضَ التِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ لا تَتَعَلمْ أَنْ تَفْعَل مِثْل رِجْسِ أُولئِكَ الأُمَمِ. لا يُوجَدْ فِيكَ مَنْ يُجِيزُ ابْنَهُ أَوِ ابْنَتَهُ فِي النَّارِ (العبادة

(١) راجع H. Staal MT. Sinai Arabic Codex 151. p 148

الكنعانية القديمة) وَلا مَنْ يَعْرُفُ عِرَافَةً (طلب معرفة المستقبل) وَلا عَائِفٌ وَلا مُتَفَائِلٌ وَلا سَاحِرٌ. وَلا مَنْ يَرْقِي رُقْيَةً (عمل الأحجبة) وَلا مَنْ يَسْأَلُ جَانّاً (الأرواح النجسة) أَوْ تَابِعَةً (الإنسان الذي تسيطر عليه الأرواح الشريرة) وَلا مَنْ يَسْتَشِيرُ المَوْتَى (من البشر). لأَنَّ كُل مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مَكْرُوهٌ عِنْدَ الرَّبِّ. وَبِسَبَبِ هَذِهِ الأَرْجَاسِ الرَّبُّ إِلهُكَ طَارِدُهُمْ مِنْ أَمَامِكَ" (تث ١٨: ٩ – ١٢)، إلاَّ أن السحر والعرافة لم ينقطعا من بني إسرائيل (راجع ارميا ٢٧: ٩). ومع ذلك، إذا كانت نصوص الشريعة تمنع هذه الممارسة النجسة، فلا يمكن اتهامها بأنها تسمح بتقديم ذبيحة للشيطان.

وهكذا تؤكد لنا "الأمور المتخالفة" أن الممارسة الصحيحة لا يمكن أن تطلب الامتناع عن المسائل الخاصة بالشيطان مثل السحر والعرافة وغيرها، ومن ثمَّ تأمر بتقديم ذبيحة للشيطان.

وإذا عدنا إلى الاسم نفسه، فإن الترجمة اليونانية التي قام بها اليهود وعُرِفَت باسم السبعينية، تترجم الكلمة العبرانية عزازيل إلى Τω αρορομραιω أي "كبش الفداء الذي يحمل الخطية والشر بعيداً". أمَّا الترجمة اللاتينية المسيحية فتترجم الكلمة من العبرانية ezazal عزعزل أي "الماعز الذي يُرسل بعيداً" اعتماداً على الأصل الآرامي "عزل" والذي ورد في سفر الأمثال ٢٠: ١٤.

ويترجم اليهود أنفسهم الكلمة في شرح أسفار العهد القديم (ترجوم على مزمور) إلى "المكان المرتفع" اعتماداً على الأصل السامي المعروف في اللغة العربية "عزز" أي المكان المرتفع. وقد دعم الأستاذ البريطاني *Driver* رأيه بتحليل لغوي مطول لا ينفع القارئ غير المتخصص، وقد تكون الكلمة من "عزز" أي العزيز، الإله العزيز القوي لأن الكلمتين معاً "عزز" و"إيل" ربما هو الأصل، وهو ما جاء في مخطوطات البحر الميت "قمران" (*11 QT 26: 13*).

وأخيراً، إن عدم ذبح التيس والإبقاء عليه حياً في القفر، يعني عدم تقديم الذبيحة؛ لأن الذبيحة يجب أن تُذبح وأن يُقدَّم الدم على المذبح كما في الطقوس الأخرى.

تمييز الأمور المتخالفة

ومن هنا، إذا اختلفت مفردات عبادة الله بتقديم الذبائح، وهي ذكر اسم الله، وجود كاهن، ومذبح وذبيحة وطقوس معروفة، نقول إذا اختلفت هذه المفردات عن عبادة الشيطان التي لا توجد لها طقوس، ولم يذكر العهد القديم وجود كهنة أو مذابح لها، أصبح الادعاء رخيصاً ولا يجوز؛ لأن الاختلاف هنا مصدره: إن ما هو موثق وموجود يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار وتعطى له الأهمية الكبرى في التفسير، وغياب طقوس وعبادة الشيطان عن أسفار العهد القديم، أي ما هو غائب تماماً، لا يجب أن يُفسِّر ما هو كائن ومعروف وموَّثق، وإلاَّ فإننا نحاول هنا حشر الخيال واختراع أفكار هي من إيحاء معاداة إسرائيل وليس من واقع تاريخ الديانة اليهودية.

إن ما هو كائن يشرح لنا ما هو كائن. أمَّا ما هو غائب، فهو وإن كنا قد نراه عقلياً بعين الخيال أو نستدل عليه، إلاَّ أنَّ مراجعته على ما هو موجود ومعروف لنرى كيف يختلف، وكيف يتفق، وكيف يتصالح أو يتعارض هو أمر ضروري.

الفصل الأول

غاية القانون الكنسي

لكل شيء في الحياة غاية واستعمال تفرضه الحياة. والبحث عن الغاية ضروري جداً، كما أن البحث عن طرق الاستعمال لا يمكن أن يغيب أو يتعارض مع غاية وجود الأشياء. وهكذا، لا يمكن أن نفصل بين النار واستعمال النار في الحياة اليومية. وجود النار خَلَقَ لها استعمالات متعددة، كما أن غاية استخدام النار مرتبطة بصفات النار.

لكل شيء في الحياة وجود أو طبيعة أو كيان. وطبيعة الأشياء غير طبيعة الأشخاص، حيث يفرض "الشيء" مثل الماء أو النار أو الحديد علينا طبيعته. ونحن نتعامل مع الأشياء من خلال قبول طبيعة الأشياء. نحن لا نستطيع أن نأكل الحديد، إلاَّ في صورة الأملاح الكيمائية التي توضع في الأدوية. أمَّا المعدن نفسه، فهو الذي يفرض علينا أن نتعامل معه حسب طبيعته.

ونحن نتعامل مع الأشخاص بالحوار والمحبة، بالسيطرة والقهر، بالتنازل والقبول، بالاستعباد والظلم، بالدفاع والاستشهاد والبذل، أو بالقتل والإيذاء ... هذه أمور لا تفرضها طبيعة شخص معين، بل تنشأ بتعامل إرادة شخص مع إرادة شخص آخر، فالسيد لا يمكن أن يمارس سيادته بدون العبيد، والعبد لا يمكن أن يُقهر بدون وجود السيد. وهكذا يتم التفاعل بين النوايا والمشاعر والأفكار والإرادات، فترتفع الحياة إلى فوق، إلى السمو، أو تنزل إلى مستوى الرذائل.

تحول الشخص إلى شيء

وأحياناً تختلط علينا الأمور عندما يتحول الشخص إلى شيء، إلى كائن بلا إرادة، له طبيعة نحددها نحن، ونفرضها عليه بالحيلة والخداع، أو بالقوة والقهر .. وأحياناً

يثور الإنسان على الظلم لكي يسترد حريته الضائعة.

خلف كل هذا يجب أن يستقر في وعي الإنسان البحث عن الغاية، عن الاستعمال نفسه، وعن ارتباطه بحياة الفرد والجماعة.

والفرق بين الشيء والشخص فرق كبير جداً في مجال الحرية، لأن "الشيء" خاضع لقانون أو قوانين طبيعته، ولذلك فحركته مقيدة بما يتصل بالأشياء الأخرى؛ لأن حركة الماء لا يمكن فصلها عن الهواء ودرجة الحرارة .. الخ. فهو عنصر يتحرك مع عناصر الطبيعة الأخرى. أمَّا الأشخاص، وهم ليسوا من عناصر الطبيعة، فيرتفعون فوق القانون الطبيعي، وبالسلوك المضاد للقانون الطبيعي نفسه يقبلون ما هو ضد الطبيعة، لأننا نكتشف حريتنا بالحياة التي هي ضد الطبيعة، مثل الاستشهاد في سبيل العقيدة أو الوطن، ومثل رفض الطعام صوماً أو احتجاجاً على الظلم، أو مثل قبول الألم النفسي أو الجسدي من أجل غاية أعظم.

الإنسان لم يُخلق من أجل السبت

تكشف لنا غاية القانون الكنسي أو غاية الشريعة عن حقيقة أعظم من القانون ومن الشريعة، وهي الإنسان نفسه الذي خُلق على "صورة الله". فالإنسان لم ينل كيانه من النظام الكوني حسب قصة الخلق في سفر التكوين، بل خُلق بعمل إلهي مباشر ونال الروح القدس (تكوين ٢: ٧) ... ولذلك الإنسان أعظم من الشريعة. ويؤكد القديس أثناسيوس هذه الحقيقة بقوله إن الله خلق الإنسان على صورته، ثم "دعَّم النعمة بالوصية"، أي خلق الطبيعة الإنسانية على صورته، ثم حدد بالوصية – ليس الحركة الخارجية – بل حركة الحياة الداخلية، لأن صورة الله لا تنتمي أصلاً للطبائع المخلوقة حسب نظام الكون وحسب الطبيعة غير العاقلة (راجع تجسد الكلمة فصل ٣ – ٤). وهكذا جاء الكلمة المتجسد، وهو صورة الله غير المنظور (كولوسي ١: ١٥) لكي يوحِّد صورته الإلهية بالصورة الإنسانية، ويجعل للإنسان صورة واحدة جديدة، هي "صورة الله المتجسد"، وذلك بعد أن فشل الإنسان في أن يكون "صورة الله". فقد حاول آدم الإلوهة، لا بالشركة بل بالخيال وبخداع الحية، ولذلك تقول أنشودة في تسابيح الكنيسة

البيزنطية:

"إن آدم خدع بأمل التألُّه، فسقط عاثراً وحُطِّم،

لكنه باتحاد الكلمة نهض متألهاً،

وبالآلام وهبتني عدم التألم،

فتمجد (آدم) بالعرش مثل الابن مجالساً الآب والروح" [١].

ولا تختلف هذه الكلمات عن كلمات سفر الرؤيا: "هَئَنَذَا وَاقِفٌ عَلَى الْبَابِ وَأَقْرَعُ. إِنْ سَمِعَ أَحَدٌ صَوْتِي وَفَتَحَ الْبَابَ، أَدْخُلُ إِلَيْهِ وَأَتَعَشَّى مَعَهُ وَهُوَ مَعِي. مَنْ يَغْلِبُ فَسَأُعْطِيهِ أَنْ يَجْلِسَ مَعِي فِي عَرْشِي، كَمَا غَلَبْتُ أَنَا أَيْضاً وَجَلَسْتُ مَعَ أَبِي فِي عَرْشِهِ" (رؤ ٣: ٢٠-٢١). وإذا كانت غاية الوصية كما يقول رسول المسيح: "هِيَ الْمَحَبَّةُ مِنْ قَلْبٍ طَاهِرٍ، وَضَمِيرٍ صَالِحٍ، وَإِيمَانٍ بِلاَ رِيَاءٍ" (١ تيمو ١: ٥)، وإذا كانت طبيعة الله هي المحبة لأن الرسول يؤكد لنا إن الله محبة (١ يو ٤: ٨)، فإن تناغم الحياة الإلهية والحياة الإنسانية في المحبة، هو الذي يجعل الرسول يقول: "وَلَكِنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ النَّامُوسَ صَالِحٌ، ... عَالِماً هَذَا أَنَّ النَّامُوسَ لَمْ يُوضَعْ لِلْبَارِّ، بَلْ لِلأَثَمَةِ وَالْمُتَمَرِّدِينَ، لِلْفُجَّارِ وَالْخُطَاةِ، ... (قائمة أخرى من خطاة وخطايا بشعة) (١ تيمو ١: ٨-١٠). فالشريعة والقانون الكنسي ليسا هما مصدر محبة الله للإنسان، ولا هما مصدر محبة الإنسان لله، بل المصدر الحقيقي كما يقول الرسول هو أن: "مَحَبَّةَ اللهِ قَدِ انْسَكَبَتْ فِي قُلُوبِنَا بِالرُّوحِ الْقُدُسِ الْمُعْطَى لَنَا" (رو ٥: ٥) ونحن نتعلم محبة الله من عطية المحبة أي من الروح القدس نفسه.

هكذا يبدأ الإفراز والتمييز الدقيق على أساس رسولي هام وهو أن:

- "كُلُّ الأَشْيَاءِ تَحِلُّ لِي لَكِنْ لَيْسَ كُلُّ الأَشْيَاءِ تُوافِقُ.
- كُلُّ الأَشْيَاءِ تَحِلُّ لِي لَكِنْ لاَ يَتَسَلَّطُ عَلَيَّ شَيْءٌ" (١كو ٦: ١٢).

وهكذا كان يجب علينا عبر تراثنا الروحي الطويل الذي يبدأ بالعصر الرسولي أن نستوعب شريعة المحبة الموازية للشريعة، أي الناموس أو قواعد السلوك السلبي في الحياة الاجتماعية الذي يبدأ بحرف النفي "لا" .. لا تقتل، لا تسرق، لا تشهد بالزور .. وقبل

---

[١] المعزي أو الاكطويخس الكبير طبعة أثينا ١٨٩٩، الطبعة العربية ١٩٠٨ و ١٩٩٠ ص ١٢.

ذلك النهي عن العبادة الوثنية.

ولكن الشريعة الأخلاقية ليست مثل شريعة الحياة في يسوع المسيح، حسب كلمات الرسول: "لأَنَّ نَامُوسَ رُوحِ الْحَيَاةِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ قَدْ أَعْتَقَنِي مِنْ نَامُوسِ الْخَطِيَّةِ وَالْمَوْتِ" (رو ٨: ٣).

وهكذا نستطيع أن نرى أن هذه العلاقة الكيانية بين الله والإنسان، هي التي تحدد غاية **الوصية،** لأن الإنسان الذي سقط عن عرش سيادة الخليقة بالإهمال وبتأمل الأمور السفلى، أُعيد إلى عرش سيد الخليقة، الكلمة المتجسد الذي أعاده بالنعمة بعد أن فشل .. وصارت **الوصية** – في تجديد الإنسان وخلقه من جديد على صورة المسيح، أي إعادة تكوين الإنسان روحاً وجسداً، لكي لا يكون صورة الله فقط، بل صورة الله المتجسِّد والمصلوب والقائم حياً بلا فساد، أي صورة حقيقية – تجد حقيقتها في شريعة الإخلاء:

"أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذاً صُورَةَ عَبْدٍ".

أو حسب الترجمة العربية القديمة التي أشرنا إليها سابقاً: "**عطَّل نفسه**".

وفي شريعة المحبة التي تقوم على الإخلاء أو تعطيل الذات، ينمو وينتقل محور المحبة من الذات إلى الشركة، أي من الاهتمام بالذات إلى الاهتمام المشترك، وهنا فقط يمكن أن ندرك حقيقة وجوهر الطاعة التي تولد في المحبة ومن أجلها ومن أجل غاية الوصية، أمَّا الطاعة العمياء التي لا غاية لها، والتي تمارس من أجل قتل الحرية، فهي ليست طاعة المصلوب؛ لأن المسيح وَجَدَ في طاعة الصليب "السُّرُورِ الْمَوْضُوعِ أَمَامَهُ" (عب ١٢: ٢)، ولذلك يكمِّل الرسول قوله "احْتَمَلَ الصَّلِيبَ مُسْتَهِيناً بِالْخِزْيِ، فَجَلَسَ فِي يَمِينِ عَرْشِ اللهِ" (عب ١٢: ٢). وهي – كما يظهر لنا – طاعةٌ إلى الموت من أجل هدف واضح ظاهر، وهو خلاص الإنسانية. وبإرادة واحدة ثالوثية لا انقسام فيها، بجوهر الحياة الإلهية أي جوهر الثالوث.

ميزان التمييز المقلوب

عَجَزَ آدم عن حفظ الوصية "لا تأكل"، أي لا تحيا حسب شريعة خاصة بك.

ذلك لأن الأكل هو طلب الحياة، وهو الأمر الذي يجعل المسيح يعطي – في تدبير الخلاص – الطعام الحقيقي الذي كل مَن يأكله لا يموت، بل يحيا حياة أبدية، لكي يبدأ الإنسان في تمييز الله كمصدر للحياة، بعد أن ظن الإنسان أنه قادر على أن يحيا بقدراته. وهكذا لم يكن خطأ آدم الأول هو خطأ بسيط، بل خطأ مركب:

أولاً: فقد ظنَّ أنه يستطيع أن يحيا إلى الأبد مثل الله بقدراته.

ثانياً: كما ظنَّ أن المعرفة هي الطريق الذي يجعله يصبح مثل الله، والمعرفة هنا ليست تلك المعرفة النابعة من حياة الشركة – حسب شرح رسالة ديوجنيتس – بل المعرفة الخاصة التي لا تصدر عن الشركة والحياة المتناغمة مع الله.

فخطية آدم إذن هي انحراف عن مقاصد الله وعن غاية الخلق، وعن غاية الوصية، ولذلك حُسِبت "تعَدٍ" أي:

* إثبات الذات وتأكيد المطامع ضد الشركة.
* الحياة حسب شريعة معرفة الخير والشر الخاصة بالإنسان.
* التشبه بالله بدون الله.

وهكذا لم تعد محبة آدم لله، هي محبة شركة، بل تحوَّل الله في عقل آدم من شخصٍ حرٍ خلقَ الإنسانَ حسب جُودِه وصلاحه إلى شيء، وإلى كائن يضن بالمعرفة وبالحياة على الإنسان. وهذه ذات كلمات القديس أثناسيوس:

"الله صالح ولا يضن بشيء على المخلوقات" (**تجسد الكلمة فصل ٤: ١ – ٥**).

وهنا انقلب ميزان التمييز، فقد صارت الوصية عائقاً وتحوَّلت إلى مانع يريد الإنسان أن يعبره مهما كانت النتائج، وتحولت مطامع الإنسان إلى غاية يسعى إليها الإنسان محاولاً أن يكون مثل خالقه دون خالقه ... ولذلك تحوَّلت الشريعة أو الوصية إلى شيء ثقيل يهين حرية الإنسان، وهي هنا حرية منفلتة وبعيدة **عن الغاية التي لأجلها خُلق الإنسان، أي أن يكون مثل الله وكصورته، أي أن يحيا في شركة مع الله**. لقد فقدت الحرية دورها، وتحوَّلت إلى "تعَدٍ". وفقدت الوصية دورها كعلامة تحفظ وتُدعِّم الشركة، وتحوَّلت إلى علامة تثير في الإنسان لذة الانقضاض عليها من أجل تحقيق غاية

واحدة، وهي إرضاء الذات وتحقيق المطامع الإنسانية (لاحظ قول الرسول: "**الطَّمَعَ الَّذِي هُوَ عِبَادَةُ الأَوْثَانِ**" (كولوسي ٣: ٥).

وهنا انقلب ميزان الإفراز، فلم يعُد هو ميزان المحبة والشركة والحياة حسب نعمة صورة الله، بل تحول إلى تحقيق الذات من أجل الذات، لا من أجل الشركة ... وهذا هو أفظع حالات الأنانية؛ لأن المحبة تحولت إلى عشق الإنسان لذاته، أي ما يُعرف في علم النفس باسم "النرجسية".

ولعلك أيها القارئ قد أدركت إن السيد المسيح عالج هذه بكشف وإعلان الشركة بينه وبين الآب والروح القدس، وإعلان طاعة المحبة بالموت على الصليب، وإخلاء أو تعطيل الذات بقبول التجسد، لكي تتحول مأساة الإنسانية فيه إلى انتصار.

القاعدة الأولى للتمييز

"السبت من أجل الإنسان"، أو غاية الوصية

لم يخلق الله الإنسان من أجل الناموس، أي لكي يحفظ الناموس، بل خلقه لكي يحيا حسب الصورة الإلهية "حياةً إلهيةً" حسب "نعمة الخلق على صورة الله". تلك كانت الخطة الأصلية التي لم تتبدل بالمرة، حتى بعد سقوط الإنسان. فإذا كان كيان الإنسان مشابهاً لكيان خالقه، تحوَّلت الوصية إلى علامة تدل على هذه المشابهة، ولم تعد هي غاية الطريق. نقول هذا في ضوء كلمات المعلم الإلهي يسوع المسيح الذي جاء لكي يقول لنا: "أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي" (يو ١٤: ٦)، فهو الطريق إلى الآب، ويسوع – لذلك – ليس هو "التوراة"، ولا هو شريعة موسى، ولا هو ناموس بالمرة، بل هو ابن الله الذي جاء بميزان دقيق للإفراز والتمييز يقوم على تمييز الغاية، والغاية هنا هي **الشركة** وميزان التمييز الدقيق هو:

"هَذِهِ هِيَ وَصِيَّتِي أَنْ تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضاًكَمَا أَحْبَبْتُكُمْ.

ومحبة المسيح تحددها كلمات المسيح (يو ١٥: ١٢ - ١٣):

"لَيْسَ لأَحَدٍ حُبٌّ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا أَنْ يَضَعَ أَحَدٌ نَفْسَهُ لأَجْلِ أَحِبَّائِهِ".

ولذلك ينقل المسيح درجة القرابة إلى مستوى عجيب ومدهش:

"أَنْتُمْ أَحِبَّائِي إِنْ فَعَلْتُمْ مَا أُوصِيكُمْ بِهِ".

وهذا يعني:

"لاَ أَعُودُ أُسَمِّيكُمْ عَبِيداً؛
لأَنَّ الْعَبْدَ لاَ يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُ سَيِّدُهُ،
لَكِنِّي قَدْ سَمَّيْتُكُمْ أَحِبَّاءَ؛
لأَنِّي أَعْلَمْتُكُمْ بِكُلِّ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي" (يو ١٥: ١٤ - ١٥).

وهكذا نقل المسيح درجة علاقة الله بالإنسان من عبد إلى حبيب، صار الإنسان حبيب الله، أو المحبوب من الله. والسبب هنا هو عدم انفصال المعرفة عن المحبة "لأَنَّ الْعَبْدَ لاَ يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُ سَيِّدُهُ"، أمَّا المسيح فقد جاء لكي يعلن لنا الآب بالكلمة وبالعمل، ولكي يجعل المحبة هي الغاية:

"اَلَّذِي عِنْدَهُ وَصَايَايَ وَيَحْفَظُهَا فَهُوَ الَّذِي يُحِبُّنِي،
وَالَّذِي يُحِبُّنِي يُحِبُّهُ أَبِي وَأَنَا أُحِبُّهُ،
وَأُظْهِرُ لَهُ ذَاتِي" (يو ١٤: ٢١).

وغاية إعلان الذات:

"إِنْ أَحَبَّنِي أَحَدٌ يَحْفَظْ كَلاَمِي،
وَيُحِبُّهُ أَبِي،
وَإِلَيْهِ نَأْتِي وَعِنْدَهُ نَصْنَعُ مَنْزِلاً" (يوحنا ١٤: ٢٣).

وهكذا صار الله هو غاية الوصية، وصارت الشركة في الحياة الإلهية هي هدف الوصية؛ لأن بقاء الإنسان في "منزل الآب" هو غاية الحياة، وغاية الإيمان.

لماذا صار السبت من أجل الإنسان؟

لعل أخطر ما كان ولا يزال يقاوم "الإنجيل" هو القاعدة المقلوبة، أو الميزان

المقلوب، الذي ساد ثقافة الديانة اليهودية، بل وثقافة العصر اليوناني الذي شهد مولد الديانة المسيحية. كانت هذه القاعدة تقول إن الإنسان جُعِلَ من أجل السبت. وكان عظماء فلاسفة اليونان يعتقدون أن الإنسان خُلق من أجل الكون[١]، وإن الإنسان اقل شأناً من الكون. واصطدم هذا مع قصة الخلق، وصلوات المزمور الثامن، فالإنسان الذي يرى جلال وعظمة الله:

أَيُّهَا الرَّبُّ سَيِّدُنَا مَا أَمْجَدَ اسْمَكَ فِي كُلِّ الأَرْضِ

حَيْثُ جَعَلْتَ جَلاَلَكَ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ!.

وهو بالطبع يقارن عظمة الله التي تنطق بها كل الكائنات:

إِذَا أَرَى سَمَاوَاتِكَ عَمَلَ أَصَابِعِكَ الْقَمَرَ وَالنُّجُومَ الَّتِي كَوَّنْتَهَا.

يعود ويتأمل كيانه وحالته، فيقول:

مَنْ هُوَ الإِنْسَانُ حَتَّى تَذْكُرَهُ وَابْنُ آدَمَ حَتَّى تَفْتَقِدَهُ!.

تَنْقُصَهُ قَلِيلاً عَنِ الْمَلاَئِكَةِ وَبِمَجْدٍ وَبَهَاءٍ تُكَلِّلُهُ.

تُسَلِّطُهُ عَلَى أَعْمَالِ يَدَيْكَ.

جَعَلْتَ كُلَّ شَيْءٍ تَحْتَ قَدَمَيْهِ" (مز ٨: ١ – ٦).

وهكذا لم يكن جلال الله ومجده هو العنصر الذي يلغي ويلاشي مجد الإنسان، بل إن مجد الإنسان مُستمدٌ من مجد الله، وهو في انسجام مع مجد الخليقة، لأن الإنسان صار أقل من الملائكة، ولكن تخضع له كل الكائنات، لأنه بمجد وكرامة أو مجد وبهاء نال تاج مُلك الخليقة، فهو يملك كملك مع الله.

ومجد الإنسان وكرامته، تجعله أعظم من كل الشرائع، وأرفع منها جميعاً. وإذا كان الإنسان هو ملك الخليقة، فهو بكل يقين أعظم من أن يُحدَّد بشريعةٍ، ولكن ينال الشريعة كنوع من العون، حسب عبارة القداس "**أعطيتني الناموس عوناً**"، أو حسب العبارات التي ذكرها التعليم الرسولي الذي سبق وأشرنا إليه.

---

(١) راجع كلمات أرسطو في كتاب "الوجود شركة" تعريب د. جورج حبيب ص ٣٥ وما بعدها.

ورفعة مجد الإنسان التي أعادها المسيح تظهر مرةً ثانيةً عندما يأخذ رسول المسيح كلمات المزمور الثامن لكي يؤكد إعادة الإنسان إلى مجده، ويفسر كلمات المزمور مؤكداً: "أَنَّ الَّذِي وُضِعَ قَلِيلاً عَنِ الْمَلاَئِكَةِ، (هو يَسُوعَ)، نَرَاهُ مُكَلَّلاً بِالْمَجْدِ وَالْكَرَامَةِ(١)، مِنْ أَجْلِ أَلَمِ الْمَوْتِ، لِكَيْ يَذُوقَ بِنِعْمَةِ اللهِ الْمَوْتَ لأَجْلِ كُلِّ وَاحِدٍ" (عب ٢: ٩). وهكذا يعود الإنسان في المسيح لكي يكون ملك الخليقة حسب التعليم الرسولي "لأَنَّهُ لاَقَ بِذَاكَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ الْكُلُّ (خلق الكل) وَبِهِ الْكُلُّ (البقاء في الوجود)، وَهُوَ آتٍ بِأَبْنَاءٍ كَثِيرِينَ إِلَى الْمَجْدِ أَنْ يُكَمِّلَ رَئِيسَ خَلاَصِهِمْ بِالآلاَمِ. لأَنَّ الْمُقَدِّسَ (يسوع) وَالْمُقَدَّسِينَ (المؤمنين) جَمِيعَهُمْ مِنْ وَاحِدٍ (من طبيعة واحدة ومصدر واحد هو طبيعة آدم الجديد)، فَلِهَذَا السَّبَبِ لاَ يَسْتَحِي أَنْ يَدْعُوَهُمْ إِخْوَةً". وإذا كان الرب لا يستحي أن يدعونا أخوة، فهذا هو ما يؤكده الرسول بعد ذلك بقوله: "فَإِذْ قَدْ تَشَارَكَ الأَوْلاَدُ فِي اللَّحْمِ وَالدَّمِ اشْتَرَكَ هُوَ أَيْضاً كَذَلِكَ فِيهِمَا" (عب ٢: ١٠ – ١٤)، ولذلك لا يخجل الرب منا ولا يستحِ، بل يقول للآب: "هَا أَنَا وَالأَوْلاَدُ الَّذِينَ أَعْطَانِيهِمِ اللهُ" (عب ٢: ١٣). وهنا نرى إن كرامة الإنسان الساقط قد أُعيدت في المسيح بسبب التجسد؛ لأن يسوع، آدم الجديد أو الثاني، ليس مجرد إنسانٍ، بل الرب من السماء (١ كو ١٥: ٤٧). وإذا كان الوضع الأصلي هو أن كل شيء خُلِق من أجل الإنسان، وإن السبت من أجل الإنسان، فقد صارت عودتنا إلى هذا الوضع مرةً ثانيةً – في تدبير تجديد الخليقة – أمراً لا يمكن أن نرفضه، لأنه يتعارض مع:

* خلق الإنسان على صورة الله.
* تجديد الإنسان بتجسد الكلمة وموته وقيامته.

وهكذا نستطيع أن نلمح أن سيادة الإنسان التي أُعيدت في المسيح، وكرامته الإلهية التي رُدَّت إليه، هي التي تجعل الإنسان أعظم من كل الطقوس والشرائع، بل أعظم مخلوق خُلق في الكون.

---

(١) تعبر طقوس أسبوع الآلام عن هذه الحقيقة بتسبحة غلبة الرب للموت، لأنه داس الموت بالموت على الصليب في عبارات: "لك القوة والمجد والبركة والعزة .."، وهكذا كان الألم مجداً، والموت قوة أي ألم المسيح وموته، ونال إكليل المجد والكرامة بالموت الذي ماته، وهنا كما نرى يصبح الصليب هو نعمة الله، لأن الرب ذاق الموت بنعمة الله، وهذا يحتم علينا أن نرى الجانب الإلهي في الصليب أي قوة ومحبة الله بجانب الآلام وعذاب الصليب.

وعندما واجه رسول المسيح حركة العودة إلى اليهودية بواسطة "الأخوة الكذبة" الذين دخلوا الكنيسة من أجل مراقبة المؤمنين وإبلاغ السلطات اليهودية، والاعتداء على حرية المؤمنين، لا نجده يقول إن المسيح بموته دفع الدين، أو قدَّم ثمناً لله الآب، بل يقول إنه "إِذْ مَحَا الصَّكَّ الَّذِي عَلَيْنَا فِي الْفَرَائِضِ، الَّذِي كَانَ ضِدّاً لَنَا، وَقَدْ رَفَعَهُ مِنَ الْوَسَطِ مُسَمِّراً إِيَّاهُ بِالصَّلِيبِ" (كو ٢: ١٤). ولولا هذا لَما استطاع الرسول أن يقول: "فَلاَ يَحْكُمْ عَلَيْكُمْ احَدٌ فِي أَكْلٍ أَوْ شُرْبٍ، أَوْ مِنْ جِهَةِ عِيدٍ أَوْ هِلاَلٍ أَوْ سَبْتٍ، الَّتِي هِيَ ظِلُّ الأُمُورِ الْعَتِيدَةِ، وَأَمَّا الْجَسَدُ فَلِلْمَسِيحِ" (كو ٢: ١٦ - ١٧). وهذا لا يعني أن المسيح أبطل الشريعة، بل رفع الإنسان فوق الشريعة، ولم يعُد مُطالَباً بحفظ الفرائض؛ لأن المسيح أكمل الناموس في حياته وموته، ولم يعد الإنسان مطالباً بحفظ شريعة موسى، بل بشريعة روح الحياة في المسيح، فكيف يكتشف هذه الحقيقة؟

القاعدة الثانية للتمييز

"لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى"

جاء المسيح لكي يشفي ويجدِّد ويرُد الضال ويحيي الميِّت روحياً وجسدياً، ولذلك صارت هذه الدعوة المدهشة مثار جدلٍ عند الذين يحفظون الشريعة، ويجعلونها غاية وجود الإنسان. فقد صارت الوسيلة، أي الشريعة هي الغاية، مع أن الله هو الغاية؛ لأن الإنسان صورة الله. والشريعة هي الوسيلة؛ لأنها تساعد الإنسان على التمييز بين الخير والشر، أو حسب عبارة الرسول: "النَّامُوسَ صَالِحٌ، إِنْ كَانَ احَدٌ يَسْتَعْمِلُهُ نَامُوسِيّاً" (١ تيمو ١: ٨). أو حسب الترجمة العربية القديمة التي أشرنا إليها من قبل "نحن نعلم إن التوراة[١] حسنةٌ إن كان الإنسان كالتوراة يتدبر فيها" (ص ١٨٣). فكيف يتدبر الإنسان التوراة؟ أي يدرك غايتها، وهو ما يؤكده الرسول: "أَنَّ النَّامُوسَ لَمْ يُوضَعْ لِلْبَارِّ، بَلْ لِلأَثَمَةِ" (١ تيمو ١: ٩).

---

(١) حسب الفهم الشرقي الأرثوذكسي كل إشارات الرسول بولس إلى الناموس أو الشريعة هي "التوراة" أي أسفار موسى الخمسة.

فإذا كانت غاية الإنجيل هي الشفاء، وكان الشفاء هو رد الحياة وغفران خطايا الذين يحكم عليهم الناموس بالموت مثل الزانية التي أُمسِكت في ذات الفعل، لذلك لم يحكم عليها الرب يسوع نفسه، رغم أنه هو الوحيد الذي بلا خطية، وكان يملك أن يرفع أول حجر ويقتلها به؛ لأنه جاء لكي يشفي ويطلب ما قد هلك. وهكذا لا يملك الناموس أو الشريعة أن تقول شيئاً عن هذا الطب الجديد الذي يعيد فيه الرب يسوع الحياة للموتى ...

إن دعوة الخطاة للتوبة هي لُب وجوهر رسالة المسيح، هي المسيح نفسه "محب العشارين والخطاة" (متى ١١: ١٩)، هؤلاء الذين لا محل لهم ولا مكان في الحياة، الفقراء، والمشوَّهين، والمرضى، والمسجونين، والعراة وكل من يندرج تحت حثالة الجنس البشري الذين نعتبرهم "غير الموجودين" (١كو ١: ٢٦ وما بعده) وهؤلاء أمام الناموس وحسب فرائض الشريعة "خطاة"، هم "الفجار" (رومية ٤: ٥) هؤلاء هم الذين جاء المسيح لكي يعطيهم "حكم الحياة"، وليس حكم الموت، وهو حكم عدل الله الذي "ظهر بدون الشريعة" ويشهد له الأنبياء، بل والشريعة، عدل الله بالإيمان بيسوع المسيح (رومية ٣: ٢١-٢٢). وإذا كانت غاية الوصية هي خلاص الإنسان، فقد أسقط مجيء الابن كل حسابات الشريعة وجعلها كلا شيء.

"أمَّا الآن فقد ظهر بر الله بدون الناموس" (رومية ٣: ٢١). وهكذا "محا الصك"، أو حسب كلمات صلاة الساعة الثالثة: "**مزق صك خطايانا أيها المسيح**" ... و "**أمح عنا صك خطايانا المكتوب علينا، كما مزقته في هذه الساعة المقدسة بصليب ابنك الوحيد**...".
وهكذا يقول الرسول:

"لَمَّا جَاءَتِ الْوَصِيَّةُ،
عَاشَتِ الْخَطِيَّةُ، فَمُتُّ أَنَا.
فَوُجِدَتِ الْوَصِيَّةُ الَّتِي لِلْحَيَاةِ هِيَ نَفْسُهَا لِي لِلْمَوْتِ" (رومية ٧: ٩ - ١٠).

ولكن شريعة روح الحياة، شريعة شفاء المرضى وإقامة الموتى وغفران الخطايا هي التي حررت الإنسانية:

"إِذاً لاَ شَيْءَ مِنَ الدَّيْنُونَةِ الآنَ عَلَى الَّذِينَ هُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ السَّالِكِينَ لَيْسَ

حَسَبَ الْجَسَدِ بَلْ حَسَبَ الرُّوحِ. لأَنَّ نَامُوسَ رُوحِ الْحَيَاةِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ قَدْ أَعْتَقَنِي مِنْ نَامُوسِ (شريعة) الْخَطِيَّةِ وَالْمَوْتِ" (رومية ٨: ١ - ٢).

لقد جاء ابن الله، وتم فينا، في المسيح رأس الإنسانية حكم الشريعة، أي موت الخطاة، وبذلك انقلب ميزان كل شيء، فلم يحكم الناموس أو الشريعة على ابن الله، بل حكم ابن الله على الشريعة:

أولاً: بالعجز عن أن تعطي الحياة (رو ٨: ٣).

ثانياً: حكم على الخطية نفسها بالموت، لأنه قضى على عرش الخطية وهو الموت (رو ٥: ٢٢).

ثالثاً: أقام الموتى ومزّق الصك (كولوسي ٢: ١٤ - رو ٤: ٢٥) ولذلك أقيم من أجل تبرير الحياة (رو ٥: ١٨).

إن القضية الكبرى التي تترتب على اكتشاف غاية الوصية، أي المحبة، هي ألاّ نسمح لأنفسنا بأن نفقد الإنسان من أجل مبدأ مهما كان ذلك المبدأ، بل أن نكسر المبدأ لأجل الإنسان، أن نكسر كل الوصايا لكي نجد الخروف الضال ونعيده ليس إلى حظيرة الموت، بل إلى حظيرة الحياة؛ لأن الراعي الصالح جعل نفسه فداءً للضال. ولاحظ أيها القارئ إن الذي يموت هو الراعي الصالح "أنا هو الراعي الصالح، والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف" (يوحنا ١٠: ١١).

نماذج معاصرة عن الإفراز

١- أذكر عندما كنا نصلي رفع بخور عشية في كنيسة مار مينا بمصر القديمة، وجاء واحد من الأخوة كان قد نقل كلاماً عن شخص معين وقاله بصوت مسموع، سمعه أبونا مينا المتوحد (قداسة البابا كيرلس السادس) فقال له "أنت شفت بعينيك؟ قال: لا .. وقال أبونا مينا "يعني أنت سمعت من حد تاني؟ .. فقال: "نعم". وقال أبونا مينا: "تبقى مش شاهد"، وقال في وداعة وحزم: "الواحد ما يقولش إلاّ اللي شافه".

وبعد، ماذا نقول عن السلوك الاجتماعي الذي نرى فيه رخاوة توصف بالوداعة، تهاون يوصف بالتواضع، نقل الإشاعات الذي يوصف بالأمانة، خلق الأكاذيب وصياغتها بصورة محكمة تنطلق من أفواه شيطانية تخدم الشيطان، أشخاصٌ

ليس لهم رسالة إلاَّ نقل الإشاعات والتلذذ بالشكوى والأخبار السيئة .. هل هؤلاء هم الروحانيون؟

٢- وهناك واقعة أخرى أذكرها جيداً: فقد حدث خلاف بين بعض الأخوة في بيت ميناء الخلاص بمصر القديمة، وذهب واحد من الأخوة يقول لأبونا مينا المتوحد أنهم قرروا صوماً حتى يتصالح واحد من الأخوة مع آخر، فقال أبونا مينا المتوحد في حزم "بلاش دروشة روحوا صالحوا أخوكم. الصلاة والصوم بدون صلح غير مقبولة لدى الله" .. وكم من صلاة وصوم وقداسات .. والحقد في كل القلوب، ويقول بعض المتروحنين "أبداً إحنا خلافنا مع الفكر وليس مع الشخص" .. كذب .. لأن هؤلاء الأشخاص أُبعِدوا عن الحياة الكنسية بشكل متعسف لا ينتمي إلى دائرة القانون الكنسي، ولم ينلهم إلاَّ الهجوم والتشهير بهم في العظات وشرائط الكاسيت ...إلخ.

٣- وأذكر واقعة كنت أنا طرفاً فيها. فقد ركبت أتوبيس ٩٥ من أمام كنيسة مار مينا مصر القديمة مع القمص ميخائيل إبراهيم .. وركب شخص حاول افتعال شجار معنا، وقال بصوت عال: "يا قس هو مش الإنجيل حرفوه القسوس والرهبان؟" وأمسك أبونا ميخائيل إبراهيم بيدي عندما أحس بأنني أريد أن أجاوب، وقال بصوت وديع حازم لا رخاوة فيه: "الحاجات التي حرفوها القسوس والرهبان أبعد عنها، والحاجات الصح أعمل بيها". وحل صمتٌ على ركاب الأتوبيس كلهم، ونظر هذا الشخص في بلاهة واضحة، وقال في دهشة: "والواحد يعرف دي من دي إزاي؟"، فقال أبونا ميخائيل: "اللي يدوق الحلو يعرف أنه حلو، واللي يعرف المالح أول ما يدوقه يعرفه، لسانك يقولك على الحلو والمالح، وقلبك يقول لك على المنحرف والصحيح، وسكت الرجل .. فقد عاد الحوار إلى أدق نقطة خاصة بالحياة المسيحية وهي قدرة الإنسان على معرفة الحق .. وعندما ينعدم الكلام عن الإفراز، وتسود الإشاعات والنميمة الكبار والصغار .. وعندما نقبل الوشاية ولا نعطي لمن قُدمت فيه شكوى فرصة الدفاع عن نفسه أو شرح موقفه .. تهبط الحياة الكنسية إلى مستوى يعف القلم والفكر قبل القلم عن وصفه.

تبدأ الروحانية الحقيقية بالإفراز .. وقديماً كان المعترف يتعلم الإفراز من الأب الروحي "أب الاعتراف" الذي ينقل خبرته الروحية ويسلِّمها إلى تلميذه "حسب قدرة فهم واستيعاب التلميذ" .. ويذكر البعض واقعة عرفها الذين كان لهم اتصال بالإكليريكية .. فقد اتهُم أحد الطلبة بسرقة كتب من مكتبة الكلية .. وبعد التحقيق معه فُصِل من الإكليريكية .. وأصر قداسة البابا كيرلس السادس على أن يعود .. وأصر البعض على الطرد .. وذهبتُ لصلاة عشية أثناء احتدام الجدل، ومرَّ قداسة البابا كيرلس بالبخور كعادته واقترب مني وقال لي: "خليك أنا عاوزك بعد الصلاة". وفي مكتب قداسته قال لي: "رُحت زرت الأخ فلان (المتهم بالسرقة)، فقلت: لا .. فقال لي: ليه؟ ولم أجد كلاماً أقوله .. وقال: "روح يا ابني عزِّيه وسلِّم عليه وشجعه .. الخاطئ هو أكثر واحد محتاج للمحبة". وكان نتيجة ذلك أن عاد هذا الأخ، بل ورسمه قداسة البابا كيرلس كاهناً .. ولكن مرت الأيام .. وأصبح الخاطئ هو المنبوذ والمطرود .. وتحاصره الإشاعات والاتهامات المعلقة .. وعندما أصبح شغل الناس الشاغل في المجتمع هو البحث عن الاتهامات، انتقلت العدوى من المجتمع إلى الكنيسة .. وأصبح الكلام عن الاتهامات هو شغل البعض الشاغل

٤- وحتى الطقوس الكنسية وقواعد القانون لا يجب أن تتحول إلى قواعد ومبادئ للقتل، أي لقتل الذين يريدون الحياة. وهكذا تصرَّف قداسة البابا كيرلس السادس، فقد كانت إحدى النساء تحب ترتيب وتنظيف كنيسة مار مينا بمصر القديمة، ورآها أحدهم وزجرها لأن النساء لا يجب أن يدخلن الهياكل .. وقال أبونا مينا المتوحد: "هذا صحيح، والمقصود من القانون الكنسي هو خدمة القداس وليس النظافة ولا حتى الصلاة الخاصة .. لأن المرأة مثل الرجل مقدسة بمسحة الميرون ونالت نعمة الحياة في الأسرار المقدسة" ..

لقد كان البحث عن غاية القانون الكنسي هو أحد سمات الحياة الأرثوذكسية .. فليس للحرف قدرة على أن يعطي حياةً، والإنسان هو أرفع وأعظم من القانون الكنسي كله .. لأن القانون وُضِعَ من أجل الإنسان، ولم يخلق الله البشر من أجل القوانين ..

جاء أحدهم يريد التناول قبل سفره إلى السعودية في نفس اليوم وهمس في أذن البابا كيرلس بأنه شرب ماءً عندما قام من النوم وبعد أن شرب تذكر أنه يريد التناول، وقال البابا كيرلس عبارة لا تزال في ذاكرتي أُقلِّبها دائماً في مناسبات معينة: "ما هو ممنوع قبل التناول ممنوع بعد التناول .. هو أنت مش حتشرب بعد التناول؟"، وهز الرجل رأسه بالإيجاب، وقال قداسة البابا: "الممنوع يا ابني هو الشر .. والصوم هو استعداد العقل ..".

القاعدة الثالثة للتمييز

"ضرورة العودة إلى التاريخ"

تنتمي الأرثوذكسية إلى نهر كبير اسمه التاريخ الكنسي، ويا ويل الشعب أو الجماعة التي لا تدرس تاريخها بكل عناية واهتمام؛ لأن إهمال تدريس التاريخ هو أشبه بفقدان الذاكرة .. ومَن يفقد ذاكرته يعيش مثل الخيال .. يفقد صلته بالواقع وبالحاضر وبالماضي، ويصبح مثل الشبح يتحرك في فراغ عقلي ..

إن كل ما لدينا من عقائد وطقوس وقوانين لها تاريخ، ويجمعه التاريخ الكنسي .. وإذا غابت عنا الأسباب التاريخية التي أدت إلى ظهور عبارات ومصطلحات وقوانين وتراتيل .. وجدنا من الصعب مناقشتها .. لدينا تاريخ للعقيدة – تاريخ الطقوس – تاريخ القوانين – تاريخ العادات – تاريخ الصلوات .. الخ. وقبل أن نتكلم على شيء علينا أن نعود للتاريخ .. ومن التاريخ نستطيع أن نعرف كيف ولماذا .. أين السبب والغاية أو الهدف .. ويبدأ الإفراز في أول أشكاله بالبحث عن الغاية، ما هو الهدف من هذا وذاك؟ وتحديد الهدف يجعلنا قادرين على أن نكتشف تاريخياً وروحياً السبب الذي لأجله كنا نمتنع عن الاستحمام بعد التناول .. تاريخياً كان الاستحمام يتم في الحمامات العامة .. لم يكن في كل بيت حمام .. ليس هذا هو فقط الوضع الخاص بالعالم القديم، بل إلى عهد قريب جداً قبل دخول المياه المنازل أي ما يقرب من مائة سنة وربما أقل .. وكان الحمام العام هو أشبه بنادي وأحياناً ماخور للأحاديث وللأجساد العارية .. وكان الامتناع عن هذه الممارسة هو للصلاة والبقاء في دائرة الشركة مع الله، فالغاية واضحة

والسبب التاريخي واضح، ولكن بعد أن صار الاستحمام في المنازل ممكناً .. وصار قاصراً على ممارسة الفرد .. لا توجد موسيقى ولا تدليك بالزيوت أو العطور .. الخ. أصبحت الممارسة القديمة ميتة، فأصبح البحث عن الهدف هو أول ما يجب أن نفهمه ونتعلمه من التاريخ.

القاعدة الرابعة للتمييز

"الاستحسان"

وهكذا علينا أن نصلح ونجدد السلوك اليومي بالبحث عن الهدف .. ولست أريد أن ادخل في تفاصيل؛ لأن الإفراز هو إتقانٌ روحيٌ يدور حول قاعدةٍ أخرى كنا نسمعها من شيوخ الكنيسة الذين لهم الفضل الأكبر في اكتشاف حريتنا في المسيح .. كانت هذه من العبارات المأثورة عن أبونا ميخائيل إبراهيم وغيره .. وهي كلمات الرسول بولس "طوبى لمن لا يدين نفسه فيما يستحسنه" (رو ١٤: ٢٢). وقد مرت سنوات قبل أن أدرك مغزى هذه الكلمات .. ومن عبارات أبونا ميخائيل المشهورة: "السلوك الصحيح يسعى وراء هدف صحيح ووراء الخير، والسلوك المقدس تحدده النية المقدسة".

ونعود إلى قاعدة الاستحسان... إذا بدأ الإنسان بالخير وما هو مقدس، فهو يرتفع وراء كل ما هو مقدس وكل ما يجده فهو نور، ومن يستحسن الخير ويسعى وراءه بنية صالحة لا يمكن أن يحكم على آخر بحسب الحرف .. ولذلك صار الاستحسان هو قاعدة التهذيب الروحي حسب كلمة الرسول بولس "أدبونا أياماً قليلة حسب استحسانهم" (عب ١٢: ١٠). والاستحسان هو قاعدة السلوك الإلهي نفسه .. فقد استحسن الله أن يخلص المؤمنين بجهالة الكرازة بالإنجيل (١كو ١: ٢١)، وهكذا نتعلم من الاستحسان حرية التصرف. إذا كان الإنسان يسعى وراء الخير بمحبة للخير، فهو لن يتوقف عند ما هو سطحي وعابر، بل عند ما هو صحيح وحقيقي ودائم .. وأذكر واقعة حدثت أمامي، فقد جاء أحدهم يقول للقمص ميخائيل إبراهيم انه كان في لجنة امتحان وسمع اثنين يتهامسان بإجابة كان هو لا يعرفها، فلم يكتبها لأن هذا غش والغش حرام .. فقال أبونا ميخائيل كلمة الرسول بولس السابقة، وقال إن الغش هو عندما تقوم أنت

بالغش، ولكن إن سمعت شيئاً لم تسع أنت إليه ولا فعلته .. فما هو الشر؟ وصُعِقَ الأخ .. ولكن طوبى لمن لا يدين نفسه فيما يستحسنه .. فليس هذا تصريح بالغش، بل هو الحصول على مساعدة غير متوقعة لم يسع إليها، ولكن الضمائر التي تريد أن تسير في طريق الحرية التي يقول عنها مار اسحق السرياني: "أنها هي طريق المحبة التي تلتزم بالحرية في القداسة، وبالصدق في تواضع لأجل جراح المسيح". وإذا وجدنا الحرية في المحبة، والمحبة في الحرية صار السعي وراء الخير أي الله نفسه هو غاية الحياة، وتحولت – حتى اللذة – إلى عطش إلى محبة الله ومحبة القريب.

الفصل الثاني

التدبير الروحي

"التدبير" كلمة هامة في حياتنا الأرثوذكسية. وحسب قاموس اللغة اليونانية الخاص بآباء الكنيسة الجامعة[١] تعني الكلمة: "خطة خاصة لها هدف"، ولذلك اعتبر الآباء أن التجسد نفسه كان خطة خاصة تعني خضوع الابن غير المحدود لما هو محدود ... القوي للضعف ... الحي للموت ... القدوس يتحد بجسد شبه الخطية (رو ٨: ٣)، وذلك لكي يقلب الرب كل هذه الأوضاع ويحول المحدود وهو الإنسان إلى الحياة الأبدية ويجعل الضعف قوة ويحول الموت بالصليب إلى حياة وقيامة.

وهكذا كسَر التجسد والصلب كل قواعد المنطق البشري؛ لأن منطق القوة هو قهر الضعفاء. ومنطق العدل الأرضي هو قتل الخطاة والمارقين. ومنطق الكراهية هو إزاحة الخصوم وتجريدهم حتى من إنسانيتهم لو أمكن، وتحويل الأشخاص إلى أشياء أو رموز أو أرقام كما يحدث في السجون ومعسكرات الاعتقال.

ولعل كسر قاعدة العدل الأرضي بموت البريء لأجل الخطاة هو أعنف ما أصاب العقل الإنساني من اهتزاز، وهو ما جعل العقل يحاول الانقضاض على التجسد والصليب باسم ما هو معقول ومقبول حسب قواعد المنطق. وخلف الانقضاض على التجسد والصلب نجد العداوة، والاحتقار، ورغبة الانتقام، وكل هذه القوى لها قانون ومنطق قادر أن يجرد أصدق العقول من قدراتها على الدفاع عن منطق المحبة، وشريعة المحبة، وقدرات المحبة التي تحي الميت وتعيد الخاطئ إلى طريق الحياة.

---

(١) اعتمدنا هنا على النصوص الآبائية التي جمعها الأستاذ G. Lampe الأستاذ السابق لمادة التاريخ والآباء في جامعة كامبردج – راجع كلمة Oikonomia عند.G. Lampe, Patristic Lexicon, 19 pp

والتدبير الروحي نراه في أقوال وقصص آباء البرية .. مثل الأخ الذي أدرك أن أبيه الروحي مملوء بالقسوة .. ونقل الأخ رسالة سلام وتعزية .. ولم يذكر كلمة واحدة من الكلام السيئ الذي كان الشيخ يريد أن يصل إلى الضيف .. وخلَّص الشيخ .. وقال الشيخ لتلميذه: "من الآن أنت الشيخ".

وقصة سلوانس المشهورة عن زيارة الأديرة أثناء الصوم الكبير، وزيارة الدير تعني تقديم الطعام والماء وغسل الأرجل حتى في الصوم، وبعد زيارة الدير طلب تلميذ سلوانس من الأب سلوانس أن يشرب بعض الماء، فقال سلوانس: لا فنحن صائمون، فقال له التلميذ: ولكننا أكلنا مع الأخوة .. فقال نعم هم أعطونا الضيافة، وذلك بسبب المحبة، ونحن قبلنا الضيافة حتى لا نعلن صومنا، ولكنني لا زلت صائماً لأن طعام المحبة لا يُفطِر .. هذا هو التدبير!

وحتى في اللغة الإنجليزية أبقى مسيحيو الغرب على الكلمة اليونانية الخاصة بالتدبير حتى لا يتوه المعنى المقصود إذا نُقِلت الكلمة إلى اللغة الإنجليزية المعاصرة *economia*. وأبسط قواعد التدبير هو أن الإنسان أعظم كائن في هذه الأرض، وكل الأشياء تخضع لهذا الكائن العظيم، فإذا أُخضِع هذا الكائن العظيم للحرف وشهوات الناس وعادات اجتماعية لم توضع لحماية الخير، بل للسيطرة والاستعباد والقهر؛ اختفت ملامح الإنجيل.

وأذكر حديثاً طويلاً مع أبونا فليمون المقاري الذي كان يقول لكل من يقبِّل يده: "بكرة هياكلها الدود". وكانت غاية الوصية هي أهم ما يميز سلوك هذا الراهب الفاضل .. قال أمام مجموعة من طلبة الإكليريكية عام ١٩٥٩ "إن القلب أعظم من المذبح والجسد مقدس مثل الكنيسة" .. وعلَّق أستاذنا الأنبا يؤنس (القمص شنودة السرياني) على ذلك وقال لنا بعد أن انزعج بعضٌ منّا .. هذا صحيحٌ كله إذا نظرنا إلى غاية الوصية؛ "لأن المذبح يُبنى من أجل الإنسان، والكنيسة من أجل الإنسان، والأخشاب والأحجار والفضة والذهب وما إليها سوف تعود إلى التراب .. وسوف تحترق في اليوم الأخير، أمَّا الذي سوف يقوم بمجد المسيح، فهو الإنسان الذي لأجله وُجِدَت كل هذه الأشياء. وقال أبونا فليمون إن كل الأشياء سوف تنتهي بالعودة إلى الله

.. وردد عبارة الرسول بولس: "أمَّا أنتم فللمسيح والمسيح لله"، هذا هو غاية التدبير .. وهي غاية واضحة .. الله في يسوع المسيح هو معلم الحق والتدبير.

وحسب التدبير كسر المسيحُ الناموسَ عندما رفض أن يحكم على المرأة الزانية .. وكسر شريعة موسى عندما غفر للذين صلبوه .. وكسر كل قواعد العدل عندما قرر أن يبرر الفاجر (رو ٤: ٥) وخرق كل الشرائع عندما ضحَّى بنفسه من أجل الخطاة .. فهل سوف يبقى هذا مثلاً صالحاً للإفراز .. أم أننا سوف نبقى في إطار اللوائح والقوانين؟

زنى راهبٌ مع راهبة في قلاية أحد الشيوخ الذي تظاهر بالنوم .. وبعد أن تركا معاً قلاية الشيخ .. عادا معاً وسألا الشيخ الذي قال إنه سمع وعرف ما حدث .. وسُئل الشيخ: "أين كان فكرك وقلبك؟"، فقال: "كنت عند الصليب أبكي" .. لم ينتهر ولم يزجر ولم يضرب .. الخ، ولكنه صلَّى وبكى .. وحفظ كرامة الخطاة لكي يترك باب الحياة مفتوحاً .. ولك — عزيزي القارئ — أن تقارن بين هذا التصرف وما يحدث في بعض كنائسنا من نشر الفضائح في العظات وأشرطة الكاسيت، ناهيك عن تزوير أشرطة الكاسيت واقتطاع عبارات من هنا ومن هناك لخلق اتهامات ونشر أكاذيب.

عندما تحل الزعامة محل القداسة، لا يعود الأب الروحي قديساً ورجل صلاة، بل يتحول إلى زعيم يبحث عن التأييد الشعبي ويدبِّر المظاهرات ويخلق الصراعات الداخلية ويغذِّيها علناً وسراً، ويحل الولاء محل الإفراز وتصير الشهادة للأشخاص وليس للعقيدة أو التعليم .. وهكذا صار من يختلف مع القائد (واعتذر عن عدم استخدام كلمة أسقف؛ لأن المفترض في الأسقف أن يكون مدبِّراً وليس زعيماً سياسياً) يجد الخلاف منشوراً على صفحات المجلات وفي عامود خاص بالسخرية والتهكم من المعارضين، وتضيع كل معالم الحياة الروحية، وهذا هو ما حل بنا في القرن العشرين .. وهكذا عندما مزجنا بين مبادئ المجتمع ومبادئ الإنجيل تعذَّر علينا أن نرى سبب انعدام الإفراز، والميوعة السائدة عندنا.

الإفراز كما تحدده الليتورجية:

تصلي الكنيسة في أوشية الاجتماعات وتطلب: "بيوت صلاة بيوت طهارة بيوت بركة" .. وتأمل كيف يجب أن نعمل جميعاً من أجل "الصلاة – الطهارة – البركة"

هذه الدعائم الثلاث هي محور صلواتنا، وتعدد بقية كلمات الأوشية ما هو ضد الصلاة – الطهارة – البركة .. أي ما يهدم الكنيسة من الداخل:

"الشكوك وفاعليها أبطلهم .. أعداء بيعتك المقدسة ..

أبطل حسدهم ... سعايتهم ... جنونهم ... شرهم ... ونميمتهم

بدد مشورتهم".

وهكذا تجمع الصلاة قوى الشر كلها التي تؤيد المشورة القاتلة. وتقابل هذه الصلاة، صلاة أخرى تؤكد نفس الاتجاه .. لكن مقاومة هذه الأمور القاتلة "البدع – الشك – الحسد – السعاية – الجنون – الشر – النميمة .." تحدده صلاة الخضوع قبل التناول في القداس الكيرلسي حيث تطلب نهاية هذه الشرور بوضع القوة الروحية المضادة.

الزنـــــــى	من أجل الميلاد البتولي
الافتخار والشر الأول الذي هو العظمة	من أجل الذي اتضع وحده لأجلنا
الخوف	من أجل الذي تألم بالجسد عنا وأقام غلبة الصليب
المجد بالباطل	من أجل الذي لُطِمَ وجُلِدَ من أجلنا ولم يرد وجهه عن خزي البصاق
الحسد والقتل والافتراق والبغضة	من أجل حمل الله حامل خطية العالم
الغضب وتذكار الشر	من أجل الذي سمَّر كتاب يد خطايانا في الصليب (لم يدفع الثمن كما هو شائع)
الشياطين	من أجل الذي شتت رؤساء الشر وهتك سلاطين الظلمة
كل فكر أرضي	من أجل الذي صعد إلى السموات

هذا هو طريق الحياة المسيحية، وهو طريق مفتوح يمكن أن يجرى فيه من يشاء حسب محبته وحسب دعوة الله له في يسوع المسيح ربنا. فإذا استعبد الإنسان كل فكر أرضي من أجل الذي صعد إلى السموات وأجلسنا معه في السماء، فإن إفراز الفكر الأرضي تعلنه الوصية المقدسة، ويصبح التخلي عن الفكر الأرضي غاية يسعى إليها الإنسان حتى يترك ما هو أرضي، ليس بالقهر والجبر، بل بالمحبة وبالنمو نحو ما لا يجعل الحياة ترتبك.

وتبنى الليتورجية كل شيء على كرامة الإنسان وعزته:

"لم تدعني معوزاً شيئاً من أعمال كرامتك.

كتبت فيَّ صورة سلطانك.

أعطيتني علم معرفتك".

وحتى بعد السقوط لم يُسقط الله كرامة الإنسان، بل

"كراع صالح سعيت في طلب الضال.

كأب حقيقي تعبت معي أنا الذي سقط".

ولم يترك الله الإنسان، بل

"أنت الذي خدمت لي الخلاص لما خالفت ناموسك".

وهل يوجد أبلغ من ركوع السيد أمام التلاميذ لكي يغسل أرجلهم .. لقد فعل ذلك بمحبة شديدة وطلب منَّا أن نحب مثله، وهكذا ركع القوي أمام الضعيف، وغسل الكامل أرجل الناقص والنجس .. ولم يكن احتجاج بطرس سوى صوت القِيَم الاجتماعية وصوت العقل وصوت الفكر السياسي الذي لا يقبل أن ينزل القوي إلى الضعيف، بل أن يقتل القوي الضعيف ويأكله حياً لو أمكن .. ولكن الليتورجية تقول لنا:

"نسأل ونطلب من صلاحك يا محب البشر

لكي إذا طهرتنا كلنا

تؤلِّفنا من جهة تناولنا من أسرارك الإلهية".

فإذا أقيم القداس من أجل الائتلاف ولم يكن لدينا هذه الرغبة تحوَّلت الصلوات

إلى دينونة رهيبة .. حرم أحدُ بطاركتنا أسقفاً من أساقفة صعيد مصر في القرن الرابع عشر، وكان الأسقف مظلوماً، وكتب له أحد شيوخ شيهيت رسالة يعزي فيها هذا الأسقف ويقول له:

> "وكل مرة يصلي فيها أبونا البطريرك صلاة تحليل الخدام يحكم عليه الثالوث والآباء والمجامع بالخروج عن الإيمان ويأخذ دينونة ويصبح واجب كل مسيحي أن يحذر ذلك المتهاون لئلا نسقط كلنا معه في خطيته".

الفصل الثالث

سلاح اللغة وقواعد النحو ودوره في صياغة الهرطقة

أدخلت الأريوسية في اللاهوت المسيحي سلاح استخدام الألفاظ وقواعد النحو والحُجج الفلسفية، وسارت أحد فروع الأريوسية على نفس الطريق، وقدمت لنا عدة براهين هامة تدور كلها حول اللغة، وعرفت هذه الهرطقة باسم "الأنومية".

وكل براهين الأريوسية وكل ما تفرَّع منها تدور حول نقطة واحدة، وهي أن الحقيقة تُدرَك وتُستخلَص من الصفات والأسماء والألقاب .. وهذه كلها كلمات لها استعمال معروف وشائع وسهل، وعلى سبيل المثال نحن نعرف أن كلمة "أب" غير كلمة "ابن" وهذا يعني أن اختلاف الأسماء، هو اختلاف أشخاص، واختلاف الأشخاص هو انفصال، والانفصال يعني وجود إلهين. وهكذا من اختلاف الأسماء كوَّنت الأريوسية أحد أدلتها على اختلاف الآب والابن والروح القدس. ويوجد دليل أريوسي آخر له أصل في الفلسفة اليونانية، وهو استخدام وصف "غير المولود" للآب، واستخدام وصف "المولود" للابن. وغير المولود هي صفة تختلف عن صفة "المولود"، وبالتالي اختلف الآب عن الابن في صفة لا يملكها الابن، ووجود صفة في الآب ليست موجودة في الابن، يعني حسب الفلسفة – وبشكل خاص فلسفة أرسطو – الاختلاف في الجوهر.

وفي العصر الحديث ثار جدل طويل حول وجود أداة التعريف "أل" في الكلام عن الروح القدس، وحاول البعض استخدام التعبير "روح قدس" كمرادف لمواهب الروح القدس. واستخدام تعبير "الروح القدس" كاسمٍ خاص لأُقنوم الروح القدس، وبالتالي خلق هذا الاستخدام اختلافاً بين المواهب الإلهية والأقنوم مؤكِّدين أننا ننال المواهب والعطايا

ولا ننال سُكنى الروح القدس نفسه. وتحوَّل هذا الجدل إلى هجوم على "تعبير الشركة في الطبيعة الإلهية"، واعتبره البعض "بدعة وهرطقةً" يجب أن تقاوَم بكل ما تملك الكنيسة، وكانت حجة هؤلاء هي أننا لا نزال نخطئ وإن الخطية في طبعنا، وبالتالي لا يمكن أن نخطئ ونحن شركاء في الطبيعة الإلهية. وقد أدهشني هذا الدليل الغريب لأنه لأول مرة في تاريخ المسيحية شرقاً وغرباً، يستخدم البعض "الخطية" كدليل وبرهان يشرح حقيقة عمل النعمة، ويشرح استحالة سُكنى الله فينا بسبب خطايانا .. وإذا استمر هؤلاء في نشر هذا التعليم لتوقف الناس وامتنعوا عن التناول من الأسرار، بحجة أنهم خطاة، وانتهت بذلك نعمة شفاء الطبيعة الإنسانية.

كيف نميز – بأرثوذكسية وتقوى مسيحية – مكان اللغة في اللاهوت؟

يقدم لنا القديس باسيليوس الكبير في الفصل الثالث من كتاب الروح القدس عدة نماذج عن خداع الألفاظ. فقد استخدم "الأنوميون" عبارات مثل: "**الذي منه**" – "**الذي به**" لتأكيد اختلاف طبيعة الروح القدس عن طبيعة الآب والابن. ويقول القديس باسيليوس:

> "إن ما قاد أصحابنا (الأنوميون) إلى هذا الانخداع هو دراستهم للمؤلفين الوثنيين الذين ينسبون عبارة "الذي منه" و "الذي به" إلى الأشياء المختلفة في الطبيعة، ويعتقد هؤلاء المؤلفون إن لفظة "منه" تدل على الأصل، بينما لفظة "به" تشير إلى الآلة أو الوسيط أو التابع"[١].

ويكتب القديس باسيليوس مؤكداً:

> "ما المانع من أن نفحص تعليم هؤلاء، ونثبت باختصارٍ تعارضه مع

---

(١) "الروح القدس للقديس باسيليوس" تعريب د. جورج حبيب بباوي القاهرة ١٩٨١، ص ٦٠ وكل النصوص مأخوذة من هذه الطبعة.

الحقيقة، وعدم انسجامه مع تعليم هؤلاء أنفسهم، تلاميذ الفلسفة الباطلة، الذين يشرحون أنواع العلة، ومن ثم يخصصون لكل من هذه العلل تعبيراً خاصاً بها، ويسمون بعضها بالعلة الرئيسية، وأخرى بالعلة المساعدة بينما توجد علة ضرورية بدونها لا يتم أي شيء" (فصل ٣: ٥ ص ٦٠).

"وعلى سبيل المثال يقول هؤلاء صنع النجار المقعد بآلات النجارة، وهكذا صار المقعد مصنوعاً بالذي استخدمه النجار، وآلات النجارة، والخشب ليست مثل النجار في الطبيعة. أمَّا عن تعبير "من"، يقولون: "من" الخشب صنع المقعد".

هكذا يؤكد القديس باسيليوس إن هذا التمييز اللغوي الدقيق هو وليد فلسفة فارغة لا صلة لها بالواقع (ص ٦١) والواقع هنا هو عمل الله، ولذلك يقول بعدها مباشرة:

"ومما يؤسف له إن الذين يقاوموننا قد درسوها وأُعجبوا بها وحولوها إلى شرح التعليم الخاص بالروح القدس، في حين أنه تعليم لا مجال فيه للسفسطة" (المرجع السابق ص ٦١).

ولعل أول ما يسترعي الانتباه هو عبارة القديس باسيليوس"

"التعبيرات التي يستخدمها غير المسيحيين للدلالة على الأدوات التي بلا حياة، أو التي تصف الاستعمال اليدوي الدنيء، مثل تعبير "بواسطة" لا يخشى هؤلاء الهراطقة من استعمالها للدلالة على خالق العالم، بل لا يخجلون – وهم أصلاً مسيحيون – من أن يستخدموا الألفاظ الحقيرة مثل المنشار أو المطرقة عندما يتكلمون عن خالق العالم (المرجع السابق ص ٦١).

قاعدة تمييز أولية:

ولعل أول ما يسترعي الانتباه هو أن التمييز الدقيق الذي يجب أن يسبق التمييز على أساس لغوي، هو التمييز بين: الخالق / المخلوقات.

وما يمكن أن يقال عن الله باللغة البشرية مهما كانت هذه اللغة لا يجب أن نفهمه كما نفهم ما يقال عن المخلوقات، عن النجَّار، عن الصانع. هذه الحقيقة الأولية يجب أن تستقر في الأذهان قبل أن نتعامل مع النصوص والألفاظ والمصطلحات وقواعد اللغة. وهكذا بشكل آخر، يجب علينا – مهما كانت العبارات – أن نؤكد إن قاعدة الإفراز والتمييز اللاهوتي التي لا يجب أن ننساها– مهما كانت الأحوال والظروف التي تحيط بالجدل أو الحوار – هي الفرق أو الفروق بين الله والمخلوقات. فما يقال عن الله لا يمكن أن يقال عن، أو ينطبق على المخلوقات، حتى وإن كانت الألفاظ والكلمات والصفات واحدة.

لم يكن الهراطقة أغبياء، بل كانوا أذكياء، ولكن كان ينقصهم الإيمان، وهذا هو الفرق الكبير بين مَن يؤمن ويؤكد له إيمانه كيف يستخدم اللغة، ومَن لا يؤمن ويترك قواعد اللغة تحدد له الإيمان، وتشرح له مفردات اللغة الإيمانَ حسب قواعد اللغة، وليس حسب قواعد الإيمان. وهنا بشكل خاص علينا أن نميِّز بين قواعد الإيمان، أي تلك التي تسبق كل لغات البشر؛ لأن عمل الله كخالق يسبق ظهور اللغات والكلمات. وكل ما يعمله الله لم يتم حسب الوسائل البشرية، فهو لم يخلق العالم بواسطة الآلات، ولم يكن لديه وسيط يساعده أو قائم بالأعمال يتولى تصريف شؤون الخليقة، فكل هذه تصورات لا تجوز بالمرة إذا شئنا أن نتكلم عن الله كلاماً يليق به كخالق.

قاعدة تمييز تفرضها آليات الإدراك الإنساني:

سُئل الأنبا انطونيوس عن الوسيلة التي استطاع بها أن يحصل على المعرفة والحكمة وهو لا يقرأ ولم يدرس كتب الفلاسفة. ولذلك يكتب القديس أثناسيوس:

> "عندما التقى به بعض الفلاسفة في الجبل الخارجي، ظنوا أنهم يستطيعون أن يسخروا منه؛ لأنه لم يتلق العلم فقال لهم: هل العقل هو سبب العلم واللغة أم العلم واللغة هو سبب العقل؟ وعندما أجابوه إن العقل هو الأول، وهو مستنبط العلم، قال انطونيوس:

"العقل الصحيح لا يحتاج إلى العلم واللغة" (فقرة ٧٣ من السيرة)[1].

فإذا كان العقل هو سبب وعلة ومصدر العلوم والمعارف، أصبح من الضروري أن ندرك إن آليات الفكر البشري نفسه تستدعي أن ينال الإدراك نفسه المكانة الأولى، وأن نفهم حقيقة الألفاظ، وعلاقة اللفظ بالواقع نفسه. وهذا ما يؤكده القديس أثناسيوس في المقالة الثانية ضد الأريوسيين، عندما يكتب قائلاً إن براهين الأريوسية خداع حقيقي:

> "إن طبيعة اللاهوت لا يمكن تحديدها بالمصطلحات والكلمات، بل إن طبيعة اللاهوت تغيِّر معاني الكلمات عندما تستخدم هذه الكلمات للحديث عنها. فالطبائع تسبق الكلمات؛ لأن الطبائع توجد أولاً، وبعد ذلك تأتي الكلمات في المرتبة الثانية" (ضد الأريوسيين مقالة ٢: ٣ راجع الترجمة الإنجليزية ص ٣٤٩).

وهكذا إذا سبقت طبيعة الله كل الكلمات واللغات، أصبح الإيمان هو الذي يغيِّر معاني الكلمات الشائعة حسب قواعد الإيمان، **وأول** هذه القواعد هو اختلاف الخالق عن المخلوقات **وثاني** هذه القواعد هو إن الطبائع والكائنات هي التي تحدد معاني الكلمات وتطورها، وليس العكس.

ولقد قدَّم الآباء الكثير من الدراسات الجيدة التي تصلح كمادة بحث شيقة في مجال الدراسات اللغوية أو كما تسمى اليوم "الألسنية"، وكيف غيَّر التجسد معاني كل الكلمات الخاصة بالإنسان والله، بل كيف غيَّر التجسد معاني نصوص العهد القديم نفسه وأعطاها معانٍ جديدة في ضوء ما جاء به الابن الكلمة من حياة وهبات، وجعل "التأويل الرمزي" لأحداث وطقوس العهد القديم ضرورة يمليها الواقع نفسه، حيث تطورت علاقة الله بالإنسان ودخلت مجالاً ومستوىً آخر لم يكن متاحاً أمام الإنسان، وهو ما يحتِّم ضرورة إعادة تفسير الكلمات السابقة على تجسد ابن الله بما يتفق مع التجسد، وما جاء به من هبات وتجديد.

---

(1) حياة الأنبا أنطونيوس، تعريب رهبنة مار جرجس الحرف ١٩٩٥ ص ٨٤ راجع نفس الفقرة في النص الإنجليزي من مجلد أثناسيوس ص ٢١٥.

الروح فوق الحرف حسب كتاب الروح القدس للقديس باسيليوس:

تأسَّف القديس باسيليوس على محاولات الهراطقة استعباد الروح القدس إلى "تفاهات الوثنية" (ص ٦٢) لأن طبيعة الله تعلو على كل قواعد اللغة، ولذلك يقول:

> "أليس هذا تهوراً لا مثيل له، أن تقاس الحياة التي تعلو كل الأزمنة بمقاييس زمنية" (ص ٧١).

فإذا كان الله يعلو على كل إدراك، فما هو مقياس الإدراك الصحيح لعمل الله؟ وما الأساس الصحيح الذي يؤهِّلنا لأن نقف عليه في ثقة واطمئنان لكي نحدد معاني الكلمات المقدسة؟ والجواب كما نرى من كتابات الآباء هو ما يقدمه القديس باسيليوس من نقد لما جاءت به الفلسفة اليونانية إذ يقول لنا:

> "إذا كان للأعداد فلسفة خاصة وقيمة حسابية .. فهل لهذا علاقة بما لدينا من إيمان بالله؟" (ص ١١٨). كيف يمكن للأعداد التي تناسب الأشياء الكثيرة (ص ١٢١) وتعبِّر عن الانفصال؛ لأننا بها نجمع ونطرح .. الخ ونفصل ونحسب - وهي كلها عمليات تدخل في آليات الفكر البشري القادر على أن يحدد طبيعة الأشياء، أمَّا الله فهو - كما يقول القديس باسيليوس - يعلو على كل الأعداد.
> ويستطرد قائلاً: "إن استخدام الأعداد لفصل أقانيم الثالوث تجعل الذين يفكرون بهذا الشكل إنما يفكرون وهم جالسون في ظلال الفكر الوثني المريض، ويحاولون أن يأخذوا منه ما يجعلهم يتخيلون إن الأعداد يمكنها أن تحدد طبيعة الأشياء (ص ١٢٢).

وحتى لا ندخل في خضم الجدل مع الهرطقات رغم ضرورته القصوى، علينا أن نقسِّم رد القديس باسيليوس من أجل الوضوح.

أولاً: التجسد يعلن إرادة واحدة للثالوث:

يفرض علينا تجسد ابن الله أن نفكر بشكل منطقي في وجود اثنين: الآب والابن. ويملي علينا أن نستخدم من آن لآخر صيغة المثنى أو صيغة الجمع. هذا يجعلنا

نفترض:

الانفصال، أو الوحدة.

فأيٌ من هذين هو الصحيح؟ والجواب هو إن الانفصال الذي يجوز في دنيا المخلوقات، لا يجوز بالمرة إذا كنا ندرس طبيعة الله. وبالتالي إذا تجسَّد الابن، فالتجسُّد لا يستدعي انفصال الابن عن الآب. وإذا قيل إن الابن أطاع (فيلبي ٣: ٨) أو "أُسلِمَ لأجلنا" (رو ٨: ٣٢)، يقول القديس باسيليوس:

> "العمل الذي أتمه الابن لأجل البشر كان من الآب، ولكن عليك أن تفهم جيداً هذه الكلمات "المسيح افتدانا من لعنة الناموس" (غلا ٣: ١٣) .. هذه الكلمات هي عن العمل الواحد الذي من الآب بالابن" (ص ٨٥ - ٨٦).

فالتجسد هو إعلان عن وحدانية جوهر اللاهوت، وهو دعوة البشر للشركة في هذه الوحدانية.

التجسد دعوة للاتحاد بالله. هذه الدعوة هي عطية ونعمة الحياة التي لا يمكن أن تُدرك بانفصال الأقانيم ولا بتحديد الأقانيم عددياً، بل كما يقول القديس باسيليوس:

> "نعمة معرفة الإيمان الذي يقودنا إلى الخلاص، حتى أننا نخلص بالإيمان وبمعرفتنا بأسماء الأقانيم المقدسة، أمَّا العدد فقد اخترعه العقل كوسيلة لمعرفة الكميات" (ص ١٢٣).

إذن الإيمان يفرض علينا أن ندرك غاية البشارة، وحقيقة دعوتنا، إمَّا أننا نعيش في حالة الانفصال عن الله، وإمَّا أننا نعيش دعوة الاتحاد والشركة لكي نكون مثل الابن الوحيد. ولذلك يقول القديس باسيليوس:

> "إذا شئت أن تستخدم الأعداد فأنت حر، ولكن لا تشوه الإيمان، بل احترمه" (ص ١٢٣) وأيضاً "نحن نعلن عن كل أُقنوم على حدة، وان كان يجب علينا استخدام الأعداد فإننا لا نسمح لأنفسنا بأن تحملنا قواعد الحساب إلى تعدد الآلهة في الوثنية (ص ١٢٤).

ثانياً: العبادة مفتاح الأسفار:

عاشت الكنيسة زهاء قرن كامل، وربما أكثر بدون العهد الجديد ككتاب واحد، وكانت تقرأ العهد القديم، وتضيف إليه كلمات الرب التي ينقلها الرسل، ثم ما دوِّن بعد ذلك .. وهكذا يحدد لنا التاريخ ما يلي:

١- أن الجماعة المسيحية سبقت وجود كتاب مقدس.

٢- أن الجماعة المسيحية مارست إيمانها من خلال الأسرار والصلوات، ووُلد في داخل العبادة قانون إيمان أو قاعدة الإيمان المكونة من ثلاث بنود: عن الآب والابن والروح القدس، وتحوَّلت هذه البنود إلى دعامة الإيمان التي تشرح كل شيء في الأسفار المقدسة.

بعبارة أخرى: العبادة هي مفتاح الأسفار، وليس العكس؛ لأن الأسفار كُتبت من أجل العبادة، ولم يعبد الناس أولاً ثم بعد ذلك أوصى الله بالأسفار، وإنما تأسست العبادة في العهد القديم على:

أولاً: التسابيح على الخلق ونظام الكون، المزامير والأنبياء.

ثانياً: الفصح واختيار شعب الله، وشريعة موسى والكهنوت والذبائح.

ثالثاً: تأسيس المملكة والوعد بمجيء المسيح.

ولو نظرنا إلى هذه العناصر الثلاثة التي كُتبت في اختصار شديد جداً من أجل ضيق المساحة والوقت، لوجدنا أنها معاً تؤلف وحدةً واحدةً لا يمكن فصلها. فحتى أسفار الأنبياء كانت رسالة موجهة إلى ما يحدث في العبادة وسوء استخدام الطقوس والذبائح.

وفي العهد الجديد، كانت ولا تزال حياة يسوع هي محور العبادة: الأمثال، العظة على الجبل، الحوار مع اليهود، الموت، القيامة، حلول الروح القدس، المعمودية التي تعود إلى معموديته في الأردن، العشاء الرباني الذي يمتد عبر العصور من العلية حتى آخر الدهور، كل هذه تشكل العصب والعامود الفقري للعبادة. وهكذا يجب أن نعود دائماً إلى العبادة، إلى الممارسة لكي نتعلم قواعد الإيمان، وقواعد التمييز بين التعليم الرسولي الصحيح والتعليم الشعبي الذي لا يرى ولا يميز التعليم الرسولي.

ثالثاً: كيف غيَّر تجسد ابن الله معاني الكلمات والأرقام:

لعل أفضل مثال، هو كلمة "**واحد**"، فهي حسابياً رقم محدود القيمة. ولكن عندما نتكلم عن "ربٌ واحد يسوع المسيح"، فنحن في حقيقة الأمر لا نعني بالمرة الواحد الحسابي، بل الواحد من اثنين "**لاهوت مساو للآب، وناسوت مساو لنا حسب التدبير**" وهي عبارة شائعة في الليتورجيات الأرثوذكسية، واستخدمها القديس كيرلس السكندري ضد بدعة نسطور.

وبسبب التجسد أصبحت كلمة "**عبد**" تطلق على الطبيعة الإنسانية كما هي حسب الطبيعة المخلوقة، ولا تطلق أبداً على الطبيعة الإنسانية التي نالت التبني حسب قول الرب: "لاَ أَعُودُ أُسَمِّيكُمْ عَبِيداً لأَنَّ الْعَبْدَ لاَ يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُ سَيِّدُهُ لَكِنِّي قَدْ سَمَّيْتُكُمْ أَحِبَّاءَ لأَنِّي أَعْلَمْتُكُمْ بِكُلِّ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي" (يوحنا ١٥: ١٥). وهكذا قبل أن نتكلم عن العبد والعبودية، علينا أن نتأكد من أننا لا ننكر عطية التبني، بل عندما أعتبر بولس أنه عبد المسيح، فقد كان يقصد نوعاً معيناً من العبودية، وهو امتلاك المسيح لحياته مثل امتلاك السيد للعبد، ولكن ذلك الامتلاك يختلف عن العبودية، لأنه امتلاك من أحب ويحب ومات وقام لكي لا يكون بولس كغيره، بل "مملوكاً" للمسيح، ومالكاً للمسيح في آن واحد.

كما غيَّر التجسد معاني كلمة "**رب**"، فصار الرب هو الرب الخادم حسب عبارة الرب "أَنَا بَيْنَكُمْ كَالَّذِي يَخْدِمُ" (لو ٢٢: ٢٧). كما غيَّر التجسد معنى كلمة "**فرد**"، فصار هو الشخص الذي يتكامل وجوده بالشركة في حياة الآخرين حسب التعليم الرسولي (١ كور ١٢: ١٢)[١]. وما أكثر ما جاء به التجسد، ويحتاج إلى دراسات مستفيضة عن التغيير في المصطلحات والأسماء والألقاب والكلمات، بسبب تجسد ابن الله.

وهكذا علينا أن نمارس الإفراز والتمييز لكي نرى ما هو الجديد الذي جاء به ربنا يسوع المسيح بسبب تجسده وموته وقيامته. لقد غيَّر الصليبُ كل ما نعرفه عن المحبة،

---

(١) "لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الْجَسَدَ هُوَ وَاحِدٌ وَلَهُ أَعْضَاءٌ كَثِيرَةٌ وَكُلُّ أَعْضَاءِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا كَانَتْ كَثِيرَةً هِيَ جَسَدٌ وَاحِدٌ كَذَلِكَ الْمَسِيحُ أَيْضاً".

وأفضل مثال هو ما يذكره الرسول في (١ كور ١٣: ٤ – ٨)[١] وهو أيضاً يحتاج إلى دراسات أخرى. كما غيَّرت القيامة معنى الموت والحياة، لأننا بسبب القيامة صرنا نحن أمواتاً حسب الجسد (رو ٨: ١٠) ولكن أحياء لله في يسوع المسيح.

(١) "اَلْمَحَبَّةُ تَتَأَنَّى وَتَرْفُقُ. اَلْمَحَبَّةُ لاَ تَحْسِدُ. اَلْمَحَبَّةُ لاَ تَتَفَاخَرُ وَلاَ تَنْتَفِخُ. وَلاَ تُقَبِّحُ وَلاَ تَطْلُبُ مَا لِنَفْسِهَا وَلاَ تَحْتَدُّ وَلاَ تَظُنُّ السُّوءَ. وَلاَ تَفْرَحُ بِالإِثْمِ بَلْ تَفْرَحُ بِالْحَقِّ. وَتَحْتَمِلُ كُلَّ شَيْءٍ وَتُصَدِّقُ كُلَّ شَيْءٍ وَتَرْجُو كُلَّ شَيْءٍ وَتَصْبِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. اَلْمَحَبَّةُ لاَ تَسْقُطُ أَبَداً".

الفصل الرابع

تمييز
معاني الكلمات والأرقام

أولاً: دور الإفخارستيا

عندما نتناول الجسد المقدس والدم الكريم، فإن أصغر جوهرة[١] هي جسد المسيح، وكل متناول إنما يأخذ جسد الرب ودمه، ولا يأخذ جزءاً منه بالمرة. هذه الآية البديعة والمدهشة تكشف عن حقيقة إيمانية كبيرة وهي دعوة الرب يسوع لكي يجمع المتفرقين إلى واحد:

- الخروف الضال حتى يكمل العدد.
- الابن الضال حتى يعود إلى بيت الآب.

هذه أمثلة موجزة جداً عن دعوة الرب لنا **للوحدة**، وهي دعوة تقوم على أساس روحي وعقيدي ثابت على صخر الدهور يسوع المسيح، وهي دعوة حوَّلت أموراً كثيرة في اللغة والعلاقات.

أولاً: وحدة على أساس اللاهوت بالناسوت في الرب الواحد يسوع المسيح. هذه الوحدة الأُقنومية لواحد هو إله وإنسان معاً منذ بداية تجسده في أحشاء البتول، وحتى آخر الدهور. هذا الاتحاد لم يترك الإنسان بعيداً عن الله، ولم يجعل حتى للخطية

---

(١) "جوهرة"، هي التعبير الطقسي القديم الذي يعبر عن آداب السلوك الروحي. ولا يقال بالمرة "جزء" لأن المسيح لا ينقسم إلى أجزاء.

والموت قدرة على أن تفصل الإنسان عن المسيح، ولذلك ترنَّم الرسول بولس بأُنشودةٍ خالدة:

"مَن سيفصلنا عن محبة المسيح؟

ووضع كل مشكلات الحياة اليومية، مثل الشدة والضيق، ... السيف،

ثم وضع كل القوات الكائنة في السماء والأرض،

الموت والحياة،

الملائكة، رؤساء، وقوات

الحاضر والمستقبل ...إلخ (راجع رو ٨: ٣٥ - ٣٩).

وهكذا - حسب الجسد - نحن متفرقون، وهذا هو ما يظهر للعيون.

أمَّا حسب الروح، فنحن واحد، جسد واحد.

فالوحدة نابعة من ذلك الاتحاد العجيب الذي تقول عنه الكنيسة: "لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين"، ولذلك يجب أن نعود إلى هذه الوحدة، إلى الاتحاد الأُقنومي لكي نفهم ونفسر كل ما يحدث في الحياة المسيحية حسب التقوى الأرثوذكسية.

وإذا رأينا هذه الوحدة بعين مستنيرة بنور الروح القدس أمكننا أن نفهم إن الوحدة الكائنة بيننا وبين المسيح تبدأ بتجسده، وتظل قائمة طالما لجسد المسيح وجود وبقاء.

يقول القديس أثناسيوس في المقالة الأولى ضد الأريوسيين فقرة ٢٠ - وهنا اعتذر للقارئ عن عدم استخدامات الترجمات الإنجليزية وغيرها، بل يجب العودة إلى الأصل اليوناني - حيث يميز أثناسيوس بين الخالق والمخلوق:

> "الأشياء المخلوقة، لا تشبه خالقها، بل جوهرها مختلف، لأنها كائنة خارج جوهر الخالق، إذ لها طبيعة مختلفة عن طبيعة الخالق، وهي كلها مخلوقة باللوغوس كعمل من أعمال نعمته وإرادته ولذلك يمكن أن تنحل وتعود إلى العدم لو أن الكلمة أراد ذلك وسُرَّ بعودتها إلى العدم". (ضد الأريوسيين ١: ٢٠).

وهنا نلاحظ أن ما هو كائن ومُتَّحد في الابن، هو كائن حسب:

- نعمة الابن الكلمة.
- إرادته.
- مسرته.

والكلام هنا لا يخص الخليقة فقط، بل يخص الناسوت أيضاً الذي هو من الخليقة، وهذا لا ينطبق على اللاهوت بالمرة.

ويعود القديس أثناسيوس ليقول في إلحاح ظاهر يتكرر في المقالات ضد الأريوسيين:

> "لو كان الابن بدون كيان، ولا وجود له سابق على ميلاده بالجسد، لقلنا بأن الحق لم يكن كائناً في الله، وهو خطية تجديف، لأنه حيث أن الآب كائنٌ دائماً، فالابن كائناً دائماً مع الآب؛ لأن الابن هو الحق الأزلي، وهو الذي يقول: "أنا هو الحق" (يو ١٤: ٦)" (ضد الأريوسيين ١: ٢٠).

فالحق الأزلي ليس فكرة مجردة، بل هو شخص وأُقنوم الابن، كما سنرى بعد ذلك، وهنا يصبح كيان الابن الأزلي الكائن في الآب هو ثباتٌ أبديٌ للاتحاد الذي حدث عندما تجسد؛ لأن كل ما هو كائن وله كيان، ومخلوق، ليس له وجود خاص به، مستقل عن الله، بل هو كائن بقوة الكلمة وبإرادته ومسرته وحسب نعمته.

وهكذا يجب أن نعود إلى الترتيب الذي جاء به الاتحاد الأُقنومي، قبل أن نتكلم عن أي شيء مهما كان. كل الأشياء كائنة بقوة كلمة الابن الخالقة التي تضبط كل الأشياء (عب ١: ٣). وترتيب الخلاص الذي يعود إلى أزلية الابن، هو التدبير الذي به تعود الكائنات إلى الشركة وإلى الاتحاد بالله.

وعودتنا إلى الله، ونوال نعمة الابن الوحيد، هي التي تجعل أثناسيوس يكتب في رسالته إلى أدلفوس:

> "كل من لا يكرم الهيكل (ناسوت المسيح)
> لا يكرم الرب الذي في الهيكل.

الذي يفصل الكلمة عن جسده يقضي تماماً على النعمة التي أعطاها لنا" (فقرة ٨ راجع ص ٥٧٧ من المجلد الخاص بالقديس أثناسيوس في الترجمة الإنجليزية).

وما هو معنى إلوهية الابن؟

يقول القديس أثناسيوس في نفس الرسالة السابقة:

"ليسمع الأريوسيون: لو كان الكلمة مخلوقاً، فكيف أخذ جسداً مخلوقاً لكي يرده إلى الحياة. ما هي النعمة التي يمكن أن يعطيها مخلوق لآخر أو يحصل عليها مخلوق من مخلوق آخر مثله، لأن كل المخلوقات في حاجة إلى الخلاص ... ولكن لأن الكلمة هو الخالق، وخلق كل الأشياء، جاء في نهاية الدهور وآخذ ما هو مخلوق لكي يقدِّس –كخالق – ويحيي ويجدد ما هو مخلوق" (المرجع السابق).

وترتيب الاتحاد الأُقنومي هو:

* بقاء اللاهوت كما هو دون تحول أو تغيير.

* بقاء الناسوت عنصراً وطبيعةً مخلوقةً لا تتحول إلى لاهوت.

* اتحاد كامل وحقيقي يغذِّي الناسوت والطبيعة المخلوقة بكل أمجاد اللاهوت ويعطي لها حياة عدم الفساد.

وهكذا يقدم لنا القديس أثناسيوس أساس وترتيب الاتحاد بالله الآب من خلال يسوع المسيح ربنا.

١- "المسيح هو الرأس والبداية αρχη" (شرح الإيمان *Expositio Fidei,1*)

٢- "المسيح هو مثال تجديد الإنسانية أو τυπος" (تجسد الكلمة ١٣ – ضد الأريوسيين ١: ٥١ – ٢ :٥ – ٢: ٧٦، ٦٨ – ٣: ٢٠).

ففيه وبسبب الاتحاد جُددت إنسانية المسيح نفسه لكي يصير مثال التجديد.

٣- "هو البكر والبداية الجديدة πρωτοτοκος" (المقالة الثانية

ضد الأريوسيين ٢: ٥ – الدفاع الخاص بهروب أثناسيوس ٢: ١٣).

٤- "الرب الإنسان ακυριακος ανθρωπος" (Exposeitio Fidei, 1 Sermo minor de Fide, 4, 19, 21).

٥- "الرب هو المرشد والقائد الذي يعيدنا إلى الآب οδηγος οκυριος" (المقالة الثالثة ضد الأريوسيين ٢: ٦١ – رسالة عيد الفصح ١٤).

ففي القداس الإلهي، وعند تناول جسد الرب ودمه، يمكننا أن نميِّز رأس الخلاص الذي "يضيء بشكله المحيي" (القداس الكيرلسي) كمثال لما سوف نناله منه وفيه، وننضم إلى البكر والبداية، إلى الرب الذي يعيدنا ويرشدنا ويقودنا إلى الآب.

أمَّا النقطة الثانية، أي المسيح "كمثال"، فلم تحظَ بالاهتمام المطلوب في العصر الحديث، وذلك لأن الترجمات الأوروبية والعربية لم تنقل بدقة تعبيرات لاهوتية هامة عند القديس أثناسيوس وغيره من الآباء، كما لم تراعِ الممارسة الطقسية في الليتورجية. و"**البداية**" و"**الرأس**" و"**البكر**" هي كلها تدخل معاً في وحدة متناسقة تخلق لنا وتقدم لنا الدعوة لكي نكون على مثال الرب المتجسد، الذي فيه هو وحده صار لنا بدايةً جديدةً وحياةً جديدةً، وعلاقةً جديدةً مع الآب.

وكما ضاعت من مفرداتنا كلمة "مثال τυπος" بكل ما تحمله من غنى، ضاعت منَّا كلمة المثال والترتيب "παραδειγμα" الذي يجب أن يغيِّر الواقع حسب خطة المهندس أو الرسام، وقد ضاع المعنى في اللغة الإنجليزية وتحولت الكلمة اليونانية إلى *illustration*.

وهنا يجب أن نفهم أن التجديد الذي يُنقل إلينا حسب تدبير تجسد الكلمة ليس مجرد تشبيه أو استعارة أو مثال، بل يَنقل إلينا كاملاً كل ما حدث لناسوت الرب، وفكره وإرادته ونفسه الإنسانية؛ لأن ما حدث للرب لم يكن الرب محتاجاً له بالمرة، بل حدث لأجل خلاصنا، ومن أجلنا نحن وُلِدَ ومُسِحَ في الأردن لكي يبيد الموت، وقام لكي يرفع إنسانيتنا إلى فوق. هذا هو المثال والتشبيه والشبه وهو ما يُعطى بالابن في

الروح القدس، إذن كيف نعود إلى الله؟

إمَّا أننا نعود إليه بالفكر فقط – حسب قدرتنا العقلية وفهمنا – وهذا هو ما حرصت الهرطقة الأريوسية على إعلانه. وإمَّا أننا نعود إليه بالفكر وبالروح والجسد لكي نتجدد ليس حسب قدرتنا، بل حسب نعمة وقدرة المسيح.

ثانياً: تحول الرسوم *Images* بسبب فيضان النعمة:

يؤكد القديس أثناسيوس هذا التحول باستخدام الرسوم المادية، لكي يؤكد لنا أن الآب هو الينبوع، والابن هو النهر، والروح القدس هو المياه، ونحن الذين نشرب من مياه النهر، أي نأخذ روح الابن.(الرسالة الأولى إلى سيرابيون: فقرة ٢١).

وهكذا تحوَّل رسم الماء من رسم مادي بسيط إلى رسم ورمز لنعمة اشتراكنا في حياة الثالوث. وهنا نرى أصل الليتورجية، فقد اقترب الله من الخليقة المادية، وصار ما هو مادي مؤهَّل – بسبب غزارة النعمة وفيض الحياة – لأنْ يُعطى لنا حسب استيعاب حياتنا. وهكذا تحوَّلت الطبيعة المادية بسبب تجسد الكلمة وفيض الروح القدس لكي تأخذ رسماً جديداً يدل على الحياة الجديدة ويصب فيها. وعلى سبيل المثال كلمة "نور λεξεις"، هي تعبير في الكتاب عن الله، ولكنه تحول إلى مثال أو تشبيه يعلن لنا الحقائق وطبيعة النعمة المعطاة لنا، وهي نعمة حقيقية؛ لأن ما يُعطى تعبِّر عنه الرسوم كحقيقة تكشف عنها طبيعة النور نفسه، وهو النور الذي نأخذه باستنارة الروح القدس الذي يجعلنا "أبناء النور" ويعيدنا إلى المجد والبهاء الذي هو مجد وبهاء المسيح.

ثالثاً: تحول العلاقات:

فما هي علاقة الجوهرة الصغيرة "بالجسد"؟ الجواب يجب أن نميزه من خلال التحول في العلاقات:

١– ليس في الخليقة الجديدة أجزاء؛ لأن الأجزاء صورة آتية من العالم الساقط الذي ينقسم إلى أجزاء، والخليقة الجديدة هي خليقة كاملة في المسيح، وما أخذه البشر قد نعجز عن أن نراه كاملاً، ولكن حسب التعليم الرسولي "كل الأعضاء (وليس

الأجزاء) هي من الجسد" (١ كو ١٢: ١٦)، أي لها طبيعة واحدة. ووحدة طبيعة جسد المسيح لا تسمح بالانقسام. وهنا، إذا قلنا إن جسد المسيح جسدٌ واحدٌ لا ينقسم، فهذا مرده إلى ثلاث حقائق:

* عدم الفساد، حتى وهو في القبر "لم يرَ جسده فساداً".

* عدم الموت؛ لأنه قام حياً.

* الاتحاد التام بأُقنوم الكلمة الذي هو الحياة، فصار الجسد المحيي.

ولذلك – كما يرى القارئ – إن عدم الفساد وعدم الموت هما من صفات اللاهوت التي اشترك فيها ناسوت الرب، وهي ذات الصفات التي تعلنها الليتورجية "**الأسرار الإلهية غير المائتة السمائية – الجسد المقدس والدم الكريم**"، وهي أيضاً سبب استخدام تعبير "**الجسد المحيي**" الشائع في قداسات الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية، والذي كل من يأكل منه لا يموت.

٢– وعدم انقسام الخليقة الجديدة إلى أجزاء، يعني اتحادها بقوة وحضور الكلمة الحي والمحيي الذي أعطى الخليقة الحياة الجديدة. ولكن خلف كل هذا نرى المصدر الذي لا ينقسم والذي نراه أصلاً في الثالوث القدوس. هكذا يكتب القديس أثناسيوس:

> "كما أن الآب هو الينبوع، والابن يدعى النهر، قيل عنا إننا نحن نشرب من الروح لأنه مكتوب: "وجميعنا سُقينا من روح واحد" (١ كور ١٢: ١٣)، وعندما نشرب من الروح، فإننا نشرب من المسيح؛ لأنه مكتوب: "وجميعهم شربوا من صخرة روحية كانت تتبعهم والصخرة كانت المسيح" (١ كور ١٠: ٤)" (الرسالة إلى سيرابيون ١: ١٩).

هكذا لا ينقسم جوهر الثالوث وهو يعطي النعمة. وهنا نلاحظ أن صورة الماء الواحد، الحياة الإلهية الواحدة، هي نفسها صورة تغيير وتحول العلاقات. هكذا يقول القديس أثناسيوس وهو يشرح عطية البنوة:

> "وكما أن المسيح هو الابن الحقيقي، هكذا نحن؛ لأننا عندما نأخذ الروح، نصبح أبناء؛ لأنه مكتوب: "لأنكم لم تأخذوا روح العبودية

مرة ثانية للخوف، بل أخذتم روح التبني" (رو ٨: ١٥). ولكن إذا كنَّا بالروح قد صرنا "أبناء"، فمن الواضح أننا في المسيح ندعى أبناء الله" (المرجع السابق).

وهنا تغيَّرت العلاقة من روح العبودية الغريب على جوهر الثالوث إلى روح التبني، روح الابن (غلا ٤: ٤).

هذا التغيير يجب أن نرده إلى أصله، وهو عدم انقسام جوهر الثالوث إلى سيد وعبد، والذي صورته عدم انقسام جسد المسيح إلى أجزاء متفرقة، بل المسيح الواحد غير المنقسم هو الذي يجعل الكنيسة جسده الواحد، تنال فيه وبه حياة عدم الموت، حياة عدم الفساد، لكي تصبح الكنيسة مثل المسيح حيةً بالروح القدس، مُتَّحدةً بأُقنوم الابن المتجسد، ممسوحةً بالروح القدس، مشترِكةً في حياة الآب. كل هذه علاقات جديدة كانت غير متاحة لنا من قبل، وصارت متاحة بفضل تجسد الابن واتحاده بالطبيعة الآدمية، وهو الاتحاد الذي فتح لنا باب الحياة الإلهية وجعل شركتنا مع الآب بالابن في الروح كما سنرى فيما بعد.

كما تحولت علاقة "**العبد**" حسب الطبيعة الساقطة إلى علاقة "**الابن**" حسب فيض نعمة المسيح.

وتحولت الأجزاء المتباعدة والمتفرقة إلى وحدة واحدة، قال عنها الرب نفسه إنه بموته على الصليب سوف يصبح مثل حبة الحنطة التي هي واحدة، ولكن عندما تموت تأتي بثمر كثير ... هذه الكثرة تجتمع معاً في وحدة واحدة هي الإفخارستيا "فَإِنَّنَا نَحْنُ الْكَثِيرِينَ خُبْزٌ وَاحِدٌ جَسَدٌ وَاحِدٌ لأَنَّنَا جَمِيعَنَا نَشْتَرِكُ فِي الْخُبْزِ الْوَاحِدِ" (١كور ١٠: ١٧).

وهكذا لم تعد علاقتنا في الكنيسة هي علاقة أفراد منفصلين، بل علاقة أعضاء متصلين في وحدة واحدة هي الكنيسة الجامعة جسد المسيح الواحد. فهذا، أي جسد المسيح هو الذي يجمع كل المنفصلين إلى واحد حسب عبارة الرسول بولس: "لأَنَّنَا جَمِيعَنَا بِرُوحٍ وَاحِدٍ أَيْضاً اعْتَمَدْنَا إِلَى جَسَدٍ وَاحِدٍ ... وَجَمِيعُنَا سُقِينَا رُوحاً وَاحِداً" (١كو ١٢: ١٣). وهكذا بعد أن ذكر رسول المسيح إنه بالمعمودية قد صار الانضمام إلى جسد المسيح، أسقط بعدها مباشرة القوميات العرقية الشائعة في زمنه، وقال: "اعتمدنا إلى جسد واحد

يهوداً كنا أم يونانيين"، ثم أسقط الوضع الاجتماعي "عبيداً أم أحراراً" (١كو ١٢: ١٣) إذ لم يعد لا الأصل العرقي، ولا الوضع الاجتماعي مؤهِّلاً أو شرطاً لكي ينضم الإنسان إلى الكنيسة الجامعة، فهو انضمام لا تقدِّم فيه الخليقة أي معونة أو قوة.

بل كما سنرى بعد ذلك، يقدِّم المسيح والروح القدس الهبة والمعونة ونعمة الانضمام إلى الجسد الواحد، وهكذا عندما دار الحوار المعاصر حول "الأقنوم والمواهب"، وأيهما ننال في الحياة المسيحية، أسقط الحوار – سواء عن حسن نية، أو عن عدم دراية – موضوع الانضمام إلى الكنيسة. ولكن كما نرى من مؤلفات عامود الأرثوذكسية القديس أثناسيوس في الفقرة ٢٩ من رسالته الأولى إلى سيرابيون إذ يقول ضد محاربي إلوهية الروح القدس:

> "إذا فصلتم وأبعدتم من أذهانكم الروح عن جوهر اللاهوت، فإنكم لن تنالوا الله الذي هو في الكل، وإذا كان هذا هو رأيكم، فإن طقس الانضمام الذي تمارسونه ليس هو طقس انضمام إلى الله؛ لأن هذا الإله هو خليط من خالق ومخلوق مثل إله الأريوسيين والوثنيين" (راجع المقالة الأولى: ٢٩ ص ١٤٧ من الترجمة الإنجليزية والنص اليوناني مجلد ٢٦).

فما هو طقس الانضمام إلى الله إلاَّ طقس الانضمام إلى الكنيسة؛ لأن الكنيسة هي جسد ابن الله، وحسب ترتيب الاتحاد الأُقنومي نحن ننال الاتحاد بالمسيح المتجسد لكي يكون لنا الانضمام والاتحاد بالله.

رأي القديس أثناسيوس في معمودية الأريوسيين:

يقول القديس أثناسيوس في المقالة الثانية ضد الأريوسيين:

> "أمَّا هؤلاء الأريوسيون، فإنهم يخاطرون بفقدان إتمام السر، وأعني به المعمودية؛ لأنه إن كان إتمام السر يُعطى باسم الآب والابن، وهم لا يعترفون بآبٍ حقيقي بسبب إنكارهم الابن الذي من الآب، والذي هو مثله في الجوهر، منكرين بذلك الابن الحقيقي، ويسمون لأنفسهم ابناً آخر (مخلوقاً). وعندما يتم هذا كله في خيالهم، متوهمين أن الابن

مخلوقٌ من العدم مثل سائر المخلوقات، يصبح طقس المعمودية الذي يمارسونه فارغاً تماماً وبلا فائدة، فهو له مظهر الطقس الحقيقي أمَّا في الحقيقة، فهو بلا نعمة تؤدي إلى التقوى طالما أنهم لا يُعمِّدون باسم الآب والابن، بل باسم خالق ومخلوق، وباسم صانعٍ ومصنوعٍ" (راجع الترجمة العربية – مركز الآباء ص ٦٩).

وقبل ذلك يقول:

"عندما تُعطى المعمودية، فإن من يعمده الآب،

يعمده الابن،

ومن يعمده الابن، فهو يعمده الروح القدس" (المرجع السابق: ٤١ ص ٦٨).

وهكذا أعادت المعمودية معنى الأرقام والصور والرسوم إلى الخليقة الجديدة لكي تجعل الواحد الفرد عضواً، لا يحُسب رقماً، بل يحُسب حسب "ملء جسد المسيح"؛ لأننا جميعا ننال ذات النعمة الواحدة وذات الميراث الواحد، وذات الملكوت الواحد، ولا نختلف في الانضمام إلى اللاهوت، بل نختلف حسب مواهب الخدمة، وليس حسب نوال نعمة حلول الروح القدس فينا.

هكذا تغيرت رسوم ومعاني الأشياء لأننا ننضم إلى جسد واحد لكي نكون معه واحداً، وهو ما تحرص الليتورجية على أن تعلنه كهدف الحياة المسيحية:

"اجعلنا مستحقين أن نتناول من قدساتك طهارةً لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا (موانع الاتحاد هي عدم الطهارة) لكي نكون جسداً واحداً وروحاً واحداً ونجد نصيباً وميراثاً مع جميع القديسين الذين أرضوك منذ البدء" (القداس الباسيلي).

وهكذا بلغ من حرص الرسول بولس أن يؤكد أن "الفردية" ***Individuality*** والفرد ***Individual*** يجب أن تصاغ معانيهما من جديد من خلال الشركة وغاية الحياة المسيحية "أمَّا انتم (الجماعة) فجسد المسيح (الوحدة) وأعضاؤه (الانضمام) أفراداً (ما هو خاص بكل فرد" (١ كور ١٢: ٢٧)؛ لأن ما هو خاص لا يُقسَّم، وإنما يُجمع ويوحَّد

حسب شريعة الحياة في المسيح. هذه نقطة هامة، وإن كانت صعبة على مستوى الممارسة، إلاَّ أنها سهلة حسب نعمة الإيمان، فيها الآلام وفيها الفرح معاً.

المبادئ اللاهوتية التي تميِّز المعمودية المسيحية عن المعمودية الأريوسية:

١- بعد أن يذكر القديس أثناسيوس الهرطقات السابقة على الهرطقة الأريوسية، يقول بعدها مباشرةً عن معمودية الأريوسيين:

> "المعمودية التي يعطونها بلا فائدة وبلا تقوى حتى أن مَن يعمدونه يتلوث بإلحادهم بدلاً من أن يُفتدى (ينال الفداء)؛ لأنهم لن يحصلوا على شيء ما دام إيمانهم الذي يُعلَن في معموديتهم يُعطى باسم من هو غير كائن. وعندما يتَّحدون بمخلوق، لن ينالوا من المخلوق أي نعمة، طالما أنهم يؤمنون بمن هو مختلف عن الآب وغريب عن جوهره، فهم لن يتَّحدوا بالآب طالما ليس لهم إيمان بالابن الذاتي المولود من طبيعة الآب والذي هو في الآب والآب فيه كما قال هو نفسه (يوحنا ١٤: ١٠). (المقالة الثانية: ٤٣ راجع ص ٦٩ و ٧٠ من الترجمة العربية).

وهكذا نرى إن إنكار الابن الذي من ذات جوهر الآب يجعل المعمودية ملوَّثة، لأن المخلوق لا يمكنه أن يقدِّم نعمةً لمخلوق آخر.

٢- الآب يعطي كل شيء بالابن في الروح القدس، فالنعمة هي نعمة واحدة من الثالوث القدوس. وهكذا أيضاً يقول أثناسيوس:

> "من المستحيل، عندما يعطي الآب نعمة لا يعطيها بالابن" (المقالة الثانية ٤١ ص ٦٧).

وعندما يعطي الثالوث، مصدر النعمة وواهب النعمة ومانح النعمة، فإن النعمة الواحدة ليست خليطاً من خالقٍ ومخلوق، بل شركة في الله، وهكذا يميِّز أثناسيوس:

> "الذي يشترك في الوجود لا يشترك في الوجود مع نفسه، بل مع

شخصٍ آخر" (المرجع السابق ٣٨ ص ٦٤).

فإذا كان الابن يشترك في الجوهر مع الآب، أصبح عطاء النعمة الواحدة، من أجل عطية الوحدة على المستوى البشري هو الذي يجعل عطية الثالوث الواحدة هي سبب وحدة الجسد الواحد، عطية واحدة لثالوث واحد.

تغييرٌ تامٌ للرموز:

ورثنا من الأجيال السابقة ذلك التعبير الدقيق "إذا جاء المرموز إليه بطُل الرمز". وإذا بطُلت رموز العهد القديم: وهي كل الذبائح والطقوس والكهنوت والشريعة الموسوية، وذلك حسب قواعد الإيمان الرسولي المدوَّن في الرسالة إلى العبرانيين: "فَلَوْ كَانَ بِالْكَهَنُوتِ اللاَّوِيِّ كَمَالٌ إِذِ الشَّعْبُ أَخَذَ النَّامُوسَ عَلَيْهِ مَاذَا كَانَتِ الْحَاجَةُ بَعْدُ إِلَى أَنْ يَقُومَ كَاهِنٌ آخَرُ عَلَى رُتْبَةِ مَلْكِي صَادِقَ، وَلاَ يُقَالُ «عَلَى رُتْبَةِ هَارُونَ»؟" (عب ٧: ١١). لقد جاء المسيح كاهناً من سبط يهوذا الذي لم تذكر التوراة أو كتب موسى شيئاً عن كهنوته؛ لأن التوراة تؤكد أن الكهنوت هو من سبط لاوي. "لأَنَّهُ إِنْ تَغَيَّرَ الْكَهَنُوتُ فَبِالضَّرُورَةِ يَصِيرُ تَغَيُّرٌ لِلنَّامُوسِ أَيْضاً" (عب ٧: ١٢)، وهكذا تم كتاب العهد القديم كله بمجيء المسيح حسب عبارة الرسول: "فَإِنَّهُ يَصِيرُ إِبْطَالُ الْوَصِيَّةِ السَّابِقَةِ مِنْ أَجْلِ ضُعْفِهَا وَعَدَمِ نَفْعِهَا" (عب ٧: ١٨). وإبطال الوصية يؤكده الرسول بكلمتين:

الضعف، وعدم النفع.

ويكمل الرسول مبادئ الإيمان "إِذِ النَّامُوسُ لَمْ يُكَمِّلْ شَيْئاً" (عب ٧: ١٩). فالضعف يؤكده الرسول بموت رؤساء الكهنة "لأَنَّ الْمَوْتَ مَنَعَهُمْ مِنَ الْبَقَاءِ" (عب ٧: ٢٣). أمَّا عدم النفع؛ فلأن الناموس يعجز عن أن يقدم أي إنسانٍ إلى الله؛ لأن الناموس له غاية واحدة، وهي أن يكشف عن الخطية، ولعل القارئ الذي يمتلك حسّاً روحياً يدرك من كلمات الرسول "فَإِنَّ النَّامُوسَ يُقِيمُ أُنَاساً بِهِمْ ضُعْفٌ رُؤَسَاءَ كَهَنَةٍ" (عب ٧: ٢٨). وضعف وعجز رئيس الكهنة عن البقاء يعني نهاية خدمته. أمَّا المسيح فهو كما يقول الرسول: "يَبْقَى إِلَى الأَبَدِ، لَهُ كَهَنُوتٌ لاَ يَزُولُ" (عب ٧: ٢٤)، وخدمة المسيح باقية، بل وكاملة "يَقْدِرُ أَنْ يُخَلِّصَ أَيْضاً إِلَى التَّمَامِ الَّذِينَ يَتَقَدَّمُونَ بِهِ إِلَى اللهِ، إِذْ هُوَ حَيٌّ فِي

كُلِّ حِينٍ لِيَشْفَعَ فِيهِمْ" (عب ٧: ٢٥). وهنا يظهر عدم نفع الناموس؛ لأن الذي يقدر أن يخلّص إلى التمام ليس الناموس، بل المسيح، والذين يتقدمون إلى الله لا يتقدمون بالناموس، بل بالمسيح. والناموس يحكم على كل البشر. أمَّا المسيح، فهو "يتشفع" وهو كما يقول الرسول "صَارَ يَسُوعُ ضَامِناً لِعَهْدٍ أَفْضَلَ" (عب ٧: ٢٢) وعدم عودة العهد القديم لممارسة أي دور في الحياة المسيحية يؤكده الرسول بقوله:"فَإِذْ قَالَ «جَدِيداً» عَتَّقَ الأَوَّلَ (جعله قديماً). وَأَمَّا مَا عَتَقَ وَشَاخَ (دخل دور الشيخوخة) فَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ الاِضْمِحْلاَلِ" (عب ٨: ١٣).

وهكذا لا يحكم الرمز على النور، بل يحكم النور على الرمز. ولا يفسِّر الظل وجود النور، بل يفسر النور وجود الظل.

طقوس يوم الكفارة:

يشرح القديس كيرلس طقوس يوم الكفارة في الرسالة ٤١ إلى أكاكيوس. وبعد أن يذكر نص سفر اللاويين، يشرح الرمز على أساس النور، أي من خلال النور ولذلك يقول: "**تعالوا بنا ننزع برقع الناموس ونجعل وجه موسى مكشوفاً بدون أغطية ولننظر الحقيقة العارية** ..". ويشرح طقس يوم الكفارة في نور المسيح مؤكداً أن المسكن الذي يُقدِّس هو "الكنيسة" وإن المسيح مات وتألم، ولكن "**في تألمه نراه كإنسان، وفي عدم تألمه نراه كإله، وأيضاً نراه في موته بالجسد، ولكنه أعظم من الموت**" (راجع ترجمة مركز الآباء ديسمبر ١٩٩٥ – ص ٦٨ وبعدها).

وبعد ذلك يشرح تطهير الأبرص مؤكدا ذات المبدأ السابق:

"وحتى وإن ذاق الموت في طبيعته الخاصة (الناسوت)، فإن الكلمة لا يشترك في الموت، بل نسب لذاته الآم جسده الخاص" (المرجع السابق ص ٧١).

وهكذا تشرح العقيدة طقوس ورسوم وظلال وكل ما جاء في العهد القديم، لأن المسيح هو "الحق" وهو "النور" وهو الذي يشرح لنا الأسفار المقدسة.

وهكذا غيَّر لنا تجسد ابن الله وموته وقيامته معاني الكتاب المقدس القديم،

وصارت معاني طقوس العهد القديم تؤخَذ من الكنيسة ومن الحياة الأرثوذكسية ومن العقيدة وليس العكس.

الفصل الخامس

تمييز
نعمة الروح القدس

مثال معاصر:

يقول أحد التعريفات المشهورة عندنا في مصر عن النعمة التي نسمعها من كل الطوائف – كأننا اتفقنا عليها دون أن نقرر ذلك، ربما لأن الفكرة شائعة وسهلة —: إن "النعمة هي هبة وعطية مجانية من الله". وتبدأ المشكلة بكلمة هبة، وكلمة عطية. وكلتا الكلمتين من الألفاظ الشائعة في العهد الجديد واللاهوت المسيحي شرقاً وغرباً. والمشكلة هنا أنه لا يوجد خطأ لاهوتي ظاهر، وإنما الخطأ مضمر، أي خفي بل وخطير.

لابد من جهد من جانب القارئ الذي لابد وأن سأل نفسه: صحيحٌ أن النعمة مجانية، وألاَّ ما كانت تُدعى نعمة. ومن الصواب أن يقال إنها عطية، وهذا لا يمكن رفضه. فما هو الخطأ إذن؟

أولاً: غاب عن التعريف، ما هي النعمة، لأن كلمة عطية وهبة وغيرها من الكلمات، كلمة غير محددة، في حين أن العهد الجديد يتحدث بالتحديد عن "نعمة ربنا يسوع المسيح"، وعن "عطية الروح القدس"، فهو لا يتحدث إلينا بشكل نظري مجرد .. لابد إذن من أن ندخل مجال الممارسة لكي نرى ما هي النعمة؟

ثانيا: لا يذكر التعريف الأسرار الكنسية، وهذا يخدم في النهاية فكر البروتستانتية ولاهوت الغرب بغض النظر عن شخصية الواعظ والكاتب.

التمييز من خلال كتاب الروح القدس للقديس باسيليوس

يقول القديس باسيليوس عن المعمودية:

"في المعمودية تموت عداوتنا لله. وكما خرج الشعب بسلام من البحر، هكذا نخرج نحن أحياء من الموت، ونصعد من المياه أحياء ... وقد خلصتنا نعمة الذي دعانا (أفسس ٢: ٥) والسحابة (التي كانت تظلل بني إسرائيل أثناء الخروج) هي رمزٌ لنعمة الروح القدس الذي يطفئ لهيب الشهوات بواسطة إماتة الأعضاء (كو ٣: ٥)" (الروح القدس ص ١٠٢ - ١٠٣).

وحتى يتأكد القارئ أن القديس باسيليوس لا يقدم لنا تعريفاً نظرياً مجرداً ندعوه إلى تأمل هذه العبارات:

"غاية المعمودية مزدوجة: أولاً القضاء على جسد الخطية لكي لا يثمر للموت (رو ٦: ١ - ٧: ٥). ثانياً الحياة بالروح لكي تثمر القداسة (رو ٦: ٢٢). ويحدث هذا عندما تتقبل المياه الجسد مثلما يتقبل القبر الجسد، بينما يسكب الروح القوة المحيية ويجدد نفوسنا من موت الخطية ويعيدنا إلى الحياة الأولى. وهذا ما يحدث في الميلاد الجديد من الماء والروح، أي الموت الذي يتم في الماء، كذلك الحياة التي تُبعث فينا من جديد بواسطة الروح" (الروح القدس ص ١٠٨).

ولا يتوقف القديس باسيليوس عند وصف الممارسة، بل يؤكد لنا أن عمل الروح القدس، أي نعمة الروح القدس فينا هي حضور الروح القدس نفسه الأُقنوم الثالث في الثالوث القدوس، فيقول:

"ومن هذا يتضح لنا أن النعمة ليست من المياه، فهي بذاتها لا تستطيع أن تعطينا شيئاً وإنما حضور الروح القدس، ولذلك قيل عن المعمودية أنها ليست لإزالة وسخ الجسد، بل سؤال الضمير الصالح عن الله (١ بط ٣: ٢١)" (الروح القدس ص ١٠٨).

وفي عبارة موجزة جداً، وجامعة يقول القديس باسيليوس:

"بالروح القدس استعدنا سُكنانا في الفردوس،
وصعودنا إلى ملكوت السموات،
وعودتنا إلى مكانة البنوة،
وحريتنا لأن ندعو إلهنا الآب،
وشركتنا في نعمة المسيح،
وتسميتنا أبناء النور،
وميراثنا في المجد الأبدي،
وباختصار شديد حصولنا على ملء البركة (رو ١٥: ٢٩) في هذه الحياة والحياة الآتية" (الروح القدس ص ١٠٨).

وفي عبارة أخرى جامعة يكتب عن تدبير الابن الوحيد، فيقول:

"وإذا تحدثنا عن التدابير الخاصة بالإنسان التي تمت بواسطة إلهنا العظيم ومخلصنا يسوع المسيح (تيطس ٢: ١٣) فمن يمكنه أن ينكر أنها تمت بنعمة الروح القدس؟" (ص ١١٤ - ١٥٥).

ويظهر لنا الفرق الكبير بين التعريف النظري المجرد، والتعريف الذي يستند إلى، أو النابع من الممارسة من خلال المقارنة التالية:

التعريف النظري	التعريف الذي تقدِّمه الممارسة
١- لا يشير إلى علاقتنا بالله بل يقدم فكرة مجردة.	يؤكد العلاقة الشخصية بالمسيح وبالروح القدس، ويؤكد ما يحدث في الحياة المسيحية.
٢- يبعدنا عن علاقتنا الشخصية بالله، لاسيما علاقتنا بالآب نفسه وبالمسيح كمخلص، وبالروح القدس الذي يعطي كل خيرات الحياة المسيحية الحاضرة والحياة الآتية.	يؤكد علاقتنا بالثالوث، وتعلن هذه العلاقة الأسرار الكنسية مثل المعمودية، وتعلن الصلوات ما يقدم من نعمة في هذا الزمان، والزمان الآتي، أي الحياة الأبدية.

٣- يمكن استخدام هذا التعريف لأي ديانة مهما كانت.	لا يمكن استخدامه خارج المسيحية لأنه محدد بما قام به المسيح، وبما يعطيه الروح القدس.

وبعد هذه المقارنة الموجزة يلزمنا أن نقدِّم كلمات القديس باسيليوس نفسه، لأنها أكثر وضوحاً ودقةً، وتجيب على أسئلة شائعة عندنا يعرفها القارئ:

"يماحكون (الهراطقة) ويقولون إن الروح القدس فينا كمجرد عطية من الله، وإن العطية لا يمكن أن تنال ذات التكريم الذي يناله الواهب والمحسن" (المرجع السابق ص ١٤٧).

وكيف يجيب القديس باسيليوس على هذا التعليم الخاطئ جداً؟

"حقا إن الروح هو عطية الله، ولكنه عطية الحياة، لأن شريعة روح الحياة هي التي جعلتنا أحراراً (رو ٨: ٢). وعطية القوة "لأنكم ستنالون قوة متى حلَّ الروح القدس عليكم" (أع ١: ٨)، فهل لذلك السبب تستهين به؟ ألم يعطينا الله الآب نحن البشر ابنه عطيةً، ولذلك قيل "الذي لم يضن بابنه، بل بذله لأجلنا، فكيف لا يهب لنا معه كل شيء" (رو ٨: ٣٢). وفي موضع آخر قيل عن سر التجسد "لتعرف الأشياء التي وُهِبَت لنا مجاناً من الله" (١ كور ٢: ١٢). وطبقاً لذلك يصبح الذين يتخذون من محبة الله العظيمة وشفقته فرصة للتجديف أشد نكراناً من اليهود، هؤلاء يقاومون الروح لأنه أعطانا الحرية أن ندعو الله أبانا "أرسل الله روح ابنه إلى قلوبنا صارخا أبَّا أيها الآب" (غلا ٤: ٤) وبسبب هذه العطية، يصبح صوت الروح القدس هو نفسه صوت الذين نالوه". (المرجع السابق ص ٤٧).

هل التمييز بين الروح القدس والمواهب، تمييزٌ صحيح يقود إلى حياة الشركة مع الله، أم تمييز باطل ينفي هذه الشركة؟

الروح القدس هو مكان القديسين:

استخدم القديس باسيليوس تعبيراً غير شائع، رغم أنه موجود في الكتب الطقسية الأرثوذكسية، وهو تعبير "مكان" أو "مسكن"، إذ يقول عن الروح:

"وحقا إن الروح هو مكان القديسين، وكل قديس هو حقا مكان الروح القدس" (ص ١٥٥). وقبل هذه العبارة يقول: "بشكل دائم يكون الروح القدس في النفس ... والروح القدس يسكن في النفس مثل الإدراك الذي يكون مثل فكرة في القلب، وأحياناً يتحول إلى كلمة ينطقها اللسان" (ص ١٥٤).

ويظهر هذا التعبير حسب الترجمة القبطية "المسكن المستعد".

"أرسِل من حضنك غير المحصور ومسكنك المستعد، وموضع مجدك، روحك القدوس .. " (صلاة استدعاء الروح القدس – القداس الباسيلي).

وهنا يقدم القديس باسيليوس هذا التشبيه لكي يؤكد أحد مبادئ الإفراز والتمييز بين الروح القدس والقوات العلوية الملائكية، فيقول:

"قوات السموات ليست مقدسة بطبيعتها، فلو كانت مقدسة بطبيعتها فلا يصبح بينها وبين الروح القدس فرق" (ص ١١٢).

ولكن ما هو التقديس؟ يجيب القديس باسيليوس على هذا السؤال:

"بأن الروح يثبّت الخليقة في بقاءها على الحالة التي خلقت عليها". ويستطرد قائلاً: "ما هو التثبيت سوى التكميل بالتقديس. والتكميل يعني الثبات وعدم التغيير، والتمسك بالصلاح، فلا تقديس بدون الروح القدس" (ص ١١٢).

ثم يقدم هذا التشبيه الذي يؤكد الاشتراك في طبيعة الروح القدس أي بالشركة في

قداسة الروح القدس نفسه:

"كما أن الحديد المحمى بالنار يتحد بالنار مع أنه غير النار، كذلك القوات السمائية وتقديسهم يأتي إليهم من خارج طبيعتهم ويثبِّت فيهم كمالهم، بشركة الروح القدس. وهم يحافظون على رتبتهم بثباتهم في الصلاح والحق ... ولو افترضت انك أزلت الروح القدس تنحل قوات الملائكة وتهلك الكراسي ورؤساء الملائكة وكل شيء يسقط في الفوضى" (المرجع السابق ص ١١٣).

وحتى لا نظن أن القديس باسيليوس يتحدث عن الملائكة فقط، وإن الثبات في التقديس هو خاص بالقوات السمائية، فإننا يجب أن ندرس في دقةٍ الفقرة كلها من الفصل السادس عشر حيث يؤكد أن الاعتراف بالإيمان الذي يتم بالروح القدس إنما هو حسب الرسول بولس. يقول القديس باسيليوس:

"وما من أحد تكلم بالروح القدس ويقول ملعون يسوع" (١ كور ١٢: ٢٧) .... ومعرفة البنوة لكل من جبرائيل ودانيال، ... والإعلان عن الأسرار هو ينبوع خاص بعمل الروح القدس، حسبما كُتِب "الله يعلنه لنا بالروح" (١ كور ٢: ١٠) ... بل رؤية وجه الآب لا يمكن أن تتم "بدون الروح القدس".

وفي عبارة جامعة عن الكل، أي عن الخليقة العاقلة يقول:

"لا يمكن أن تستمر هذه الحياة العقلية الفائقة وفق قانونها بدون الروح القدس، إن ثبات العالم الروحي بالروح القدس هو مثل ثبات الجيش وقيامة وفق نظامه العسكري ولا يمكن أن يتحقق ذلك إذا غاب قائده ... وإذا تحدثنا عن التدابير الخاصة بالإنسان ... فمن يمكنه أن ينكر أنها تمت بنعمة الروح القدس" (المرجع السابق ص ١١٣ - ١١٥).

هل يمكن الفصل بين الروح القدس والنعمة والمواهب؟

يقدم القديس باسيليوس المبدأ اللاهوتي الهام الذي يمنع الفصل بين الروح القدس، والنعمة والمواهب؛ لأن ذلك يؤدي إلى نتائج خطيرة جداً على الحياة الروحية والإيمان نفسه لأن هذا المبدأ حسب كلمات هذا المعلِّم العظيم:

"ما حصل في تدبير مجيء ربنا في الجسد، الكل تم بالروح في المقام الأول، صار الروحُ المسحةَ، وصار حاضراً بلا افتراق في جسد الرب كما هو مكتوب "الذي ترى الروح ينزل عليه ويستقر هو ابني الحبيب" (يوحنا ١: ٣٣ ومتى ٣: ١١) ويسوع الناصري الذي مسحه الله بالروح القدس" (أع ١٠: ٣٨)، ومن ثم كان الرب يتم كل أعماله بالروح وكان معه بلا افتراق عندما صنع الأعمال العجيبة (متى ٧: ٢٢) ولم يفترق عنه عندما قام من الأموات؛ لأنه لما أراد أن يجدد الإنسان ويرد إليه النعمة التي كان قد حصل عليها من نفخة الله والتي فقدها الإنسان، قال وهو ينفخ على وجه التلاميذ "اقبلوا الروح القدس، مَن غفرتم خطاياه تغفر له ... (يوحنا ٢٠: ٢٢ – ٢٣) ثم أليس واضحاً وهو لا يقبل الجدل إن ترتيب الكنيسة من الروح؟ (المرجع السابق ص ١١٥ – ١١٦).

ويبرز القديس باسيليوس أن النعمة والمواهب هي حضور الروح القدس، ولذلك يؤكد أنه في يوم الدينونة سوف ينفصل الذين أحزنوا الروح القدس عن الروح القدس نفسه

"الذين احزنوا الروح القدس بسلوكهم الشرير ولم يستثمروا ما أعطي لهم، سوف يحرمون من الذي أخذوه، أو حسب تعبير واحد من الإنجيليين سوف يُشطرون (متى ٢٤: ٥١). والشَّطر يعني الانفصال التام عن الروح .. والشَّطر إلى قسمين هو الانفصال التام للنفس عن الروح القدس، ومع أنه لا يختلط (الروح) بالذين يستحقونه إلاَّ أنه بنوعٍ ما حاضرٌ في الذين خُتِموا مرة (نالوا المعمودية والميرون) وهو يعمل على خلاصهم إذا ما عادوا وإلاَّ فإنه يُقطع تماماً من النفس

التي تدنس نعمته، ولذلك السبب قيل "ليس في الجحيم من يسبحون الله .." (مزمور ٦: ٥) لأنه لا توجد هناك (في الجحيم) معونة من الروح، فهو ليس حاضراً في الذين ابتعدوا عن الله: كيف إذن يمكن الاعتقاد بأن الدينونة تتم بدون الروح القدس، والكلمة الإلهية تشير إليه باعتباره جائزة الأبرار، ففي ذلك اليوم ينالونه بالكمال بدلا من العربون (٢ كو ١: ٢٢ – ٥: ٥) وبداية الدينونة في ذلك اليوم أيضاً تكون حرمان الخطاة مما أخذوه" (ص ١١٦ – ١١٧).

وهكذا نرى بكل ما يمكن أن نحصل عليه من رؤية واضحة إن ما يحدث في الحياة الروحية الأرثوذكسية – حسب كلمات القديس باسيليوس – هو من خلال حضور الروح القدس في الذين نالوا المعمودية والميرون.

ما هو المقصود بكلمة حضور:

إن تعبيرات مثل "حضور"، و"معونة"، و"نعمة"، و"مواهب الروح القدس"، ليست سوى الشركة في الروح القدس، أي في كمال وتقديس الكائنات المنظورة وغير المنظورة. وتعبِّر الليتورجية الأرثوذكسية عن هذه الحقيقة الروحية الفائقة والغنية في عبارات موجزة:

"إن الخليقة كلها تتجدد بالروح القدس، راجعة إلى كيانها الأول (الذي خلقت به) لأنه (الروح القدس) مساو في القوة للآب والكلمة".

"إن التملك على الخليقة وتقديسها وتحريكها هو للروح القدس، فإنه إله مساو في الجوهر للآب والكلمة" (كتاب المعزي ص ٧، ص ٦٩ – طبعة أورشليم ١٩٠٨، طبعة لبنان ١٩٩٠).

وهكذا فقد عكس القديس باسيليوس الكبير الممارسة الكنسية مؤكِّداً إياها في عبارة شائعة عند الآباء جميعا وتتردد بشكل دائم عند القديس أثناسيوس الرسولي:

"الآب يعمل كل الأشياء بالابن ويكمل بالروح القدس" (راجع كتاب الروح القدس للقديس باسيليوس ص ١١٢).

فالروح هو الذي يعلِّم القوات السمائية التقديس "الذي يتم بمؤازرة الروح القدس" وكل طقس ورتب السماء لا تقدر أن تكمل خدمتها بلا عيب إلاَّ بقوة الروح القدس، وكل ذلك الإتقان الفائق في السماء في خدمة الله، الذي يجعل أصوات التسبيح للفرق والقوات الملائكية تلتحم وتتفق وتحقق الانسجام مع بعضها البعض، لا يتم بدون إشراف الروح القدس" (المرجع السابق ص ١١٤).

فهل يمكن أن نفصل بين النعمة والروح القدس؟ والجواب هو بكل يقين لا؛ لأننا إزاء حضور وقيادة. وهو حضور لا يعني إلاَّ أُقنوم الروح القدس نفسه لأن مشكلة الذين لا يدركون معنى كلمة "نعمة"، تظهر في عدم إدراكهم لحقيقة "الإنعام" بحضور وقيادة الروح، بل كما يقول القديس باسيليوس نفسه، إنه حضور كما لو كان الروح القدس هو "مكان"، راحة، وتقديس القديسين.

حياة المسيح تشرح معنى الحضور والنعمة:

ولكي نتأكد أن حضور الروح القدس هو النعمة نفسها، لدينا مقياس الإفراز الذي لا يخطئ، وهو حياة ربنا يسوع المسيح نفسه. يقول القديس باسيليوس:

* تدبير مجيء ربنا في الجسد، الكل تم بالروح في المقام الأول.

* صار الروح المسحة، وصار حاضراً بلا افتراق في جسد الرب.

* كان الرب يتمم كل أعماله بالروح .. (ص ١١٥).

وهل يمكن لنا أن نتصور إن الرب مُسِحَ بمواهب وعطايا الروح القدس، دون أن يأخذ مسحة الروح القدس نفسه؟

إن الجواب بالإيجاب خطير جداً على الحياة الروحية؛ لأننا إذا قلنا إن المواهب والنعمة والعطايا هي غير الروح القدس نفسه، نكون قد فصلنا الروح القدس عن الابن نفسه، ذلك أن الذي تجسَّد من القديسة مريم لم يكن موهبة، بل كان الأقنوم الثاني نفسه؛ لأن "الكلمة صار جسداً" (يوحنا ١: ١٣ - ١٤)، فكيف يمكن لنا أن نؤمن بالتجسد وننكر انسكاب الروح القدس على الرب نفسه، الذي دُعِيَ "المسيح"؛ لأنه مُسِح بالروح القدس نفسه، ولم يُمسح بمواهب الروح القدس. وإذا حاول الذين ينكرون

مِسحة الرب بالروح القدس، أو الذين يقولون إن ما أعطي للمسيح يسوع ربنا وهو في الجسد هو خاص به فقط وليس للإنسانية، فإن هذه الحقائق التالية تشجب إيمان هؤلاء وتظهر عدم أرثوذكسية التعليم الذي يذاع بيننا من أجل هدم سر الإنجيل وقوته.

هل مُسح الرب وحده بالروح القدس:

١- إذا كان الابن المتجسد قد أخذ مسحة الروح القدس لأنه هو وحده الذي مسح وهو لم يمسح لأجلنا لكي نشترك نحن في مسحته، ونمسح به ومعه وفيه بالروح القدس، فإن الادعاء بأنه مُسح وحده، يجعل الابن غريبا عن الروح القدس، ويجعل الكامل القدوس غريباً عن الروح القدس، وبذلك يهدم هذا التعليم وحدة جوهر الثالوث، لأنه يدَّعي أن الابن وحده هو الذي نال مسحة الروح القدس، أي لم يكن له شركة بالروح القدس، ونال هذه الشركة في الزمان عندما تجسَّد.

٢- إذا قال البعض إن الابن وحده هو الذي مُسح، وأنكر هؤلاء أننا نحن نمسح فيه وبواسطته بالروح لكي نشترك في مسحة الرب نفسه، أصبح على هؤلاء أن يشرحوا لنا اسم ديانة المسيح أي المسيحية، أي ديانة "المسحاء" أو الممسوحين مع يسوع حسب كلمات الإنجيلي يوحنا "وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلَكُمْ مَسْحَةٌ مِنَ الْقُدُّوسِ وَتَعْلَمُونَ كُلَّ شَيْءٍ.... وَأَمَّا أَنْتُمْ فَالْمَسْحَةُ الَّتِي أَخَذْتُمُوهَا مِنْهُ ثَابِتَةٌ فِيكُمْ، وَلاَ حَاجَةَ بِكُمْ إِلَى أَنْ يُعَلِّمَكُمْ أَحَدٌ، بَلْ كَمَا تُعَلِّمُكُمْ هَذِهِ الْمَسْحَةُ عَيْنُهَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَهِيَ حَقٌّ وَلَيْسَتْ كَذِباً" (١ يوحنا ٢: ٢٠، ٢٧). فهل صارت هذه المسحة، وهي هنا ليست المواهب بل معرفة الحق، ومعرفة التعليم السليم، وهي حضور الرب الروح المحيي الذي يمسح ويثبِّت كل الأشياء، أو حسب كلمات الليتورجية التي تؤكد أن المسحة هي مسحة معرفة "الذي أنعم لنا بمعرفة الروح القدس الحقيقية" (القداس الغريغوري).

٣- وأي رجاء لنا إذا فصلنا الابن عن الروح القدس، وفصلنا الروح عن المواهب، وجعلنا بهذا الفصل، الابن غريباً عن الروح القدس، والروح القدس غريباً عن جسد الرب، وهو ذات الجسد الذي إليه وفيه بالروح القدس ننال شركة الانضمام حسب التعليم الرسولي: "لأننا جميعنا سقينا روحاً واحداً" (١ كو ١٢: ١٣). لقد أخذنا هذا الانضمام بالروح القدس في سر المعمودية المقدس، ومُسحنا بالميرون المقدس لكي ننال أو

نشرب روحاً واحداً هو الماء الحي أي روح الحياة حسب كلمات الرب يسوع نفسه للمرأة السامرية في إنجيل يوحنا (٤: ١١-١٤، ٧: ٣٧-٣٩).

٤- ولم يفصل الرسول بولس الروح عن المواهب، بل يؤكد أن الروح القدس هو الذي يعطي كلام حكمة ومواهب شفاء .. الخ فالروح هو الذي يعمل "لكي يُعطي إظهار الروح (١ كور ١٢: ٧) فالذي يُستعلن ويظهر هو الروح بواسطة الموهبة، ولا يُعلن الروحُ المواهبَ، بل المواهب الروح. ومع أن المواهب متعددة حسب عبارة الرسول نفسه "أنواع مواهب موجودة"، "أنواع خدم موجودة"، لكن الرسول لم يذكر تعدد المواهب فقط، بل حكم على هذا التعدد حكماً قاطعاً:

- الروح واحد
- الرب واحد
- الله واحد.

وكرر كلمة واحد ثمانية مرات في نفس السياق مؤكداً أن المواهب المتعددة "كلها يعملها الروح الواحد بعينه قاسماً لكل واحد بمفرده (على حدة لكل مؤمن) كما يشاء (الروح القدس) (١ كور ١٢: ١١). وهكذا الذي يجمع الكل معاً بمواهب متعددة هو الروح الواحد الذي يوزِّع حسب إرادته ما يصلح لنا في هذه الدنيا، لأننا لو أخذنا المواهب المتعددة دون الروح الواحد، وصلنا إلى الانقسام والانفصال؛ لأن المواهب المتعددة إذا لم تكن لإظهار الروح الواحد، تحوَّلت هذه المواهب إلى جحيم الانقسام.

عطية المحبة الأبدية، أي محبة الله:

بعد أن ذكر الرسول عطايا ومواهب الروح القدس، وطلب من المؤمنين أن يسلكوا في الطريق الأفضل، وهو طريق المحبة (١ كور ١٢: ٣٠)، وبعد أن سأل ذلك السؤال الهام: ألعل الجميع رسلاً؟ ألعل الجميع أنبياء؟ ويقول الرسول للكنيسة في العصر الحديث ألعل الجميع يتكلمون بألسنة؟ (١ كور ١٢: ٢٩ - ٣١).

ويبقى السؤال الخطير الذي لا يمكن أن نتجاوزه: إذا كانت المواهب والعطايا لا تُعطى للكل، بل تُعطى لفئة دون فئة، فما هو الطريق الأفضل؟ ويؤكِّد الرسول إن الطريق الأفضل ليس هو التكلُّم بالألسنة أو معرفة النبوات والأسرار والعلم ونقل الجبال. وتأمل

أيها القارئ هذه القائمة الجبارة بما فيها نقل الجبال .. ولكن الذين نالوا هذه العطايا الفائقة بما فيها النبوة، هؤلاء إن لم ينالوا عطية الله نفسه، أي المحبة صاروا: نحاساً يطن وصنجاً يرن (١كو ١٣: ١).

وحتى الذين ماتوا شهداء أو سلَّموا كل ما لديهم في نسك وصوم بلا محبة "وَإِنْ أَطْعَمْتُ كُلَّ أَمْوَالِي وَإِنْ سَلَّمْتُ جَسَدِي حَتَّى أَحْتَرِقَ وَلَكِنْ لَيْسَ لِي مَحَبَّةٌ فَلاَ أَنْتَفِعُ شَيْئاً" (١كو ١٣: ٣).

وحُكم الرسول على هذا الأمر عائدٌ إلى حقيقةٍ لا يجب أن تغيب عن أذهاننا:

النبوات ستبطل.

الألسنة ستنتهي.

العلم سيبطل. (١كو ١٣: ٧ – ٨).

كل هذا سوف ينتهي لأنه ناقصٌ في الزمان الحاضر، وفي الزمان الآتي، أي الحياة الأبدية، أو "الأزمنة الأزلية" (٢ تيمو ١: ٩) سوف نرى كل شيء، سوف نعرف كل ما بُشِّرنا به، ولذلك لن يعمل فينا الروح القدس لكي ننال النبوة أو المعرفة، بل به سوف نرى وجه الآب، حسبما رأينا عند القديس باسيليوس .. ماذا سيبقى لنا من كل عطايا الروح القدس؟ الجواب هو عطية المحبة؛ "لأَنَّ مَحَبَّةَ اللهِ قَدِ انْسَكَبَتْ فِي قُلُوبِنَا بِالرُّوحِ الْقُدُسِ الْمُعْطَى لَنَا" (رو ٥: ٥). وإذا جاز لنا أن نميِّز بين المواهب والأقنوم، فماذا سنقول عن الله الذي هو محبة (١ يوحنا ٤: ٧) والذي سكب محبته فينا بالروح القدس. وإذا لم نحفظ هذه الوديعة الغالية الأبدية على النحو الذي يذكره الرسول بولس لتلميذه: "تَمَسَّكْ بِصُورَةِ الْكَلاَمِ الصَّحِيحِ الَّذِي سَمِعْتَهُ مِنِّي، فِي الإِيمَانِ وَالْمَحَبَّةِ الَّتِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ. أِحْفَظِ الْوَدِيعَةَ الصَّالِحَةَ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ السَّاكِنِ فِينَا" (٢ تيمو ١: ١٣-١٤). فماذا سيبقى لنا من الله نفسه، إذا لم يكن لنا شركة داخلية في الذي هو محبة (١ يو ٤: ٧) أو حسب الكلمات السابقة "المحبة التي في المسيح يسوع" (٢ تيمو ١: ١٤)، فقد يجوز لنا أن نرى في الألسنة وإخراج الشياطين، ونقل الجبال وكل القوات الأخرى، عملاً يُنسب إلى قوة الروح القدس، ويجوز لنا أن نقول إننا "شركاء" الروح القدس في العمل كل هذا جائز ومقبول .. أمَّا أن ننكر انسكاب محبة الله، أي انسكاب الله نفسه في قلوبنا، فإننا نكون قد دخلنا

معتقل الأريوسية المظلم وسجن أريوس الشيطاني الذي فيه تحيا الخليقة في حالة انفصال تام عن الله، لأن المخلص يسوع المسيح هو مخلوق، ولأن الكلام عن الابن والروح القدس كغرباء عن جوهر الله، هو كلام عن عدم اشتراك الخليقة في أي شيء إلهي بما فيها المحبة الإلهية.

غاية الحياة الروحية هي الاتحاد بالثالوث:

يلزمنا قبل أن نتكلم عن أي أمر من الأمور الخاصة بالحياة الروحية أن نسأل ما هي غاية الحياة الروحية؟

والجواب يحدد لنا اللاهوت، أي نوع الإيمان الذي نريده، لأن الإيمان لا يمكن أن ينفصل عن الحياة لأننا نؤمن بما نريد أن نأخذ، وبما نسعى إليه، وبما يصبح هو محور الاشتياق نفسه. قد نعطش إلى أمورٍ كثيرة، ولكن العطش الحقيقي الذي يرتوي من ينبوع الحياة، الروح القدس، هو العطش الذي وعد ربنا يسوع المسيح بأن يعطي ما يرويه، أي "الماء الحي" (يو ٤: ١٤ – ٧: ٣٧ وما بعده). قد ننال كل ما نطلب، ولكن هذه هي غاية الحياة الروحية "إليه نأتي وعنده نصنع مسكناً" (يو ١٤: ٢٣) ... وختم الرب كلامه بحضور المعزي "ليمكث معكم إلى الأبد" (يو ١٤: ١٥). ورأى الرب إن حرف الجر "**مع**" لا يكفي العقل البشري، ولذلك أضاف "ماكثٌ معكم ويكون فيكم" (يو ١٤: ١٧)، وعلينا أن ننتبه لأن الروح الذي يمكث معنا ويكون فينا هو: "يعلمكم كل شيء" (يو ١٤: ١٥)، يرشدكم إلى جميع الحق (يو ١٦: ١٣)، ولذلك بعد قيامته قال المسيح له المجد: "اقبلوا الروح القدس" (يو ٢٠: ٢٢).

وإذا حاول البعض ترجمة كلمات الرب في (يوحنا ٢٠: ٢٢) إلى اقبلوا "روح القدس" أو "روحاً قدساً" أو غيرها، فالعبرة ليست في قواعد اللغة القبطية أو اليونانية أو غيرها؛ لأن الروح الذي يُقسِّم المواهب والعطايا لا ينقسم هو إلى أرواح، بل هو الروح الواحد. أمَّا الذي ينقسم إلى أرواحٍ، فهي مملكة الشيطان، وهو الذي ينقسم إلى كثرة لا توجد فيها وحدة، ولذلك كما قال الرب يسوع المسيح سوف تزول مملكته (لو ١١: ١٧ – ١٨) (راجع فصل ١٧: ص١١٣).

وعندما يقول القديس باسيليوس "**من ينكر الروح فإيمانه بالآب والابن أيضاً باطل؛**

لأنه لا يمكن أن يتمسك بالإيمان الصحيح بالآب والابن بدون الروح القدس" (فصل ١١ ص ٩٥). ولكن ما هو جدير بالملاحظة هو العبارة الأخيرة في هذا الفصل: "**ومَن يجحد الإيمان، فليس له نصيب في السجود الحقيقي، فلا يستطيع أحدٌ أن يسجد للابن إلاَّ بالروح القدس ولا يستطيع أحدٌ أن يدعو الآب أبًا إلاَّ بروح التبني أي الروح القدس**" (فصل ١١: ص ٩٥). فالثالوث القدوس كما يقول القديس باسيليوس "**الثالوث هو الذي فدى حياتنا من الهلاك وأعطانا قوة التجديد الكامنة في سر المعمودية، الذي يعطي لنفوسنا الخلاص العظيم**" (فصل ١٢: ٩٧) ولذلك فان فصل الروح القدس عن الثالوث كما يقول بعدها مباشرة: "**يعني فقدان الحياة الأبدية نفسها**" (ص ٩٧). وما معنى هذا الكلام سوى أننا يجب أن نعود إلى الثالوث "**الذي فدى حياتنا من الهلاك**"، فقد عشنا سنوات طويلة تحت إيحاء وتأثير التعليم الغربي البروتستانتي الذي لا ينكر الثالوث، ولكنه لا يعطي له مكانة المركز في الحياة الروحية، حيث يدور الخلاص – حسب هذا التعليم – حول ما فعله الابن لإرضاء الآب على الصليب. وعلى عكس ذلك يكتب القديس باسيليوس في الفصل الخامس عشر الملخص الشامل للإيمان على هذا النحو:

١– "**تدبير إلهنا ومخلصنا الخاص بالإنسان هو استرجاع الإنسان من السقوط والعودة من الاغتراب الذي حدث له بسبب المعصية إلى شركة مباشرة مع الله**" (ص ١٠٦). فالخلاص هو عودة للشركة مع الله. عودة من الاغتراب الذي جاءت به الخطية.

٢– "**لذلك السبب جاء المسيح وحل في الجسد وتألم على الصليب وقبر وقام**". وماذا يعني ذلك؟ "**لكي يخلص الإنسان عندما يتمثل بالمسيح ويعود إلى رتبة البنوة القديمة**". ويؤكد القديس باسيليوس إن التشبه ليس فقط "**كمثال للوداعة والتواضع والاحتمال كمنهج لحياتنا**" (ص ١٠٦)، وإنما التشبه الذي يقود مباشرة إلى "موته" وإلى "قيامته" ويسأل القديس باسيليوس كيف نبلغ إلى التشبه به في موته؟ أليس بالدفن معه في المعمودية؟ ويرتب نتائج المعمودية على هذا النحو:

أ– تنتهي الحياة الأولى الساقطة.

ب– تبدأ الحياة الثانية.

وكيف تبدأ الخطوة الأولى لكي تبدأ الخطوة الثانية؟

"**لابد وأن يأتي الموت لكي يفصل بين الحياة القديمة والحياة الجديدة**" (ص ١٠٧). ويشرح عمل الابن والروح القدس، الحياة التي تموت مع المسيح وتُدفن معه، الحياة التي فيها "**يسكب الروح القوة المحيية ويجدد نفوسنا من موت الخطية ويعيدنا إلى الحياة الأولى.. الحياة التي تُبعث فينا من جديد بواسطة الروح**" (ص ١٠٨). ويكرر العبارة السابقة التي أشرنا إليها "**في كل أعمال الله، فإن الروح القدس غير منفصلٍ عن الآب والابن. وعندما يوزِّع الله الأعمال، والابن يقوم بتوزيع الخدمة، أمَّا الروح القدس الحاضر معهما دائما فهو بإرادته يوزِّع المواهب**" (ص ١١٠-١١١). فالسبب أو العلة الخالقة هو الآب الذي يخلق بالابن، والعلة المكملة أو السبب المكمل هو الروح .. "**لأن علة أو سبب وجود الكائنات هو واحد: الآب الذي يخلق بالابن ويكمل بالروح القدس**" (ص ١١٢). وشركة الثالوث في كل شيء هي الجوهر الواحد أو اللاهوت الواحد الذي يعمل كل شيء بأقانيمه الثلاثة "**الآب الذي يأمر**[١] **والكلمة الذي يخلق والروح الذي يثبِّت**" (ص ١١٢). وهذه الحقيقة تؤكد لنا أن عمل الله الثالوث لا ينقسم "**فلا السلطة والقدرة أو المجد ينقسم، بل السيادة والسلطة الحاكمة هي واحدة**" (ص ١٢٤) والسبب في ذلك أن "**الطبيعة الإلهية بسيطة غير مركبة**"، والوحدة بين الآب والابن والروح القدس "**هي وحدة قائمة على الشركة في الجوهر الإلهي**" (ص ١٢٤ - ١٢٥).

الروح القدس هو أُقنوم التقديس الذي يشركنا في طبيعته:

يقول القديس باسيليوس إن الروح القدس هو "**أُقنوم حي متميز بطبيعة التقديس الفائقة**" (فصل ١٨: ص ١٢٥). والتقديس هنا لا يعني فقط تطهير الطبيعة الإنسانية، بل أيضاً الاستنارة بالروح القدس، الذي يقول عنها القديس باسيليوس في نص بليغ نتركه للقارئ لكي يتذوق جماله.

> "وعندما نستنير بالقوة التي فينا، ونحدِّق النظر في جمال صورة الله غير المنظور (الابن)، ومن الصورة (الابن) نبلغ إلى الجمال الفائق للأصل (الآب). وعندما يكون روح المعرفة حاضراً (الروح القدس) بلا

(١) لم نتعود على أمر وطاعة المحبة، بل تعودنا على أمر وطاعة الصغير وإذلاله باسم الطاعة .. وجليٌ أن هذا غير منسجم مع إيماننا بالثالوث.

> انفصال، فإنما في ذاته (الروح القدس) - ولمن يحب رؤية الحقيقة وقوة معاينة الصورة (الابن) - لا من الخارج، بل يقودهم (الروح القدس) إلى معاينتها في ذاته (الروح القدس). وكما أنه لا أحد يعرف الآب إلاَّ الابن (متى ١١: ٢٧)، أيضاً لا يقول أحدٌ إن يسوع هو الرب إلاَّ بالروح القدس (١كو ١٢: ٣) ولم يقل (الرسول بولس) بواسطة الروح القدس، بل بالروح القدس لأن الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق يجب أن يسجدوا (يوحنا ٤: ٢٤). كما هو مكتوبٌ: في نورك يا رب نعاين النور، أي باستنارة الروح، النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان آتٍ إلى العالم (مزمور ٣٦: ٩ - يوحنا ١: ٩). هذا يوصلنا إلى أنَّ الروح القدس هو الذي يعلن في ذاته مجد الابن الوحيد، وإنه هو (الروح القدس) الذي يمنح للساجدين الحقيقيين المعرفة الحقيقية لله" (ص ١٢٧).

هذا كلامٌ هامٌ، بل وخطير جداً؛ لأنه يؤكد لنا إن التحول الذي يحدث في كياننا الإنساني لا يمكن أن يكون تحوُّلاً فكريا فقط، بل هو تحولٌ في الطبيعة الإنسانية يظل محجوباً عنا، ولكنه يُعلَن على قدر استطاعتنا أن ندرك إلى أن نصل إلى الآب على النحو الذي يؤكده القديس باسيليوس من خلال الاتجاهين الذين يتقابلان في الابن الروح. ونترك الكلام للقديس باسيليوس الذي يشرح تنازل الله إلينا بالابن في الروح القدس، وتحولنا إلى صورة ومجد الابن أي ارتفاعنا إليه في الروح القدس على هذا النحو الذي يبدأ أولاً بتحول كياننا الذي يبدأ بالمعرفة:

> "إذن طريق معرفتنا بالله يبدأ بالروح الواحد. من خلال الابن الواحد إلى الآب الواحد (ص ١٢٧).

تنازل الله إلينا

> "ولكن بعكس ذلك، يصلنا الصلاح الإلهي،
>
> وقداسة الله ومجد الملكوت
>
> * من الآب

* بالابن

* في الروح القدس (ص ١٢٧).

وهذه كلمات القديس باسيليوس عن تنازل الله ودخول الإنسان إلى الشركة "**وفي كلا الاتجاهين يظهر الاعتراف بالأقانيم**" (ص ١٢٧). وإذا قال القديس باسيليوس إن "**قداسة الخليقة ليست كامنة في كيان المخلوقات، بل توهب من الخارج من الله**" (فصل ١٩: ص ١٣٩)، فالتقديس كما يقول باسيليوس يعني "**أن الساقطين في الخطية يتجددون في الحياة الحاضرة، وهذا المعنى نفهمه من الكتاب المقدس، ويظهر في كلمات بولس:إذا كان أحدٌ في المسيح فهو خليقة جديدة** (٢ كو ٥: ١٧)**، أي تحويل الحياة الأرضية القائمة على الحواس إلى الحياة التي تتأمل السماويات، وهو ما يفعله الروح، فإنَّ هذه الخليقة الجديدة تملأ نفوسنا إعجاباً بالسماويات**" (ص ١٣١). هذه الرؤية التي يمنحها الروح القدس تجعل كل مَن "**يحدِّق بثبات في الروح القدس، يتجلى بمجد الروح القدس إلى مجدٍ فائق، ويستنير قلبه بنور الحق الذي يفيض من روح الحق. هذا ما يصفه الرسول بأنه تحول من مجد إلى مجد أي من مجد الروح القدس إلى المجد الذي صار لهذا الإنسان، ليس بقِلةٍ، ولا بضعفٍ، ولا بعدم تمييز، بل بالقدر الذي يطيعه الإنسان الذي ينيره الروح "أنتم هيكل الله وروح الله ساكن فيكم"** (١كو ٣: ١٦)" (ص ١٣٩).

ويقدم لنا القديس باسيليوس هذا التحذير "**الإنسان العاجز عن أن يتطلع إلى نور الحق الروحي .... والحياة المستعبدة للذات الجسد، لا يمكنها أن تقبل نعمة الروح القدس، بل هي مثل العين المريضة لا تقدر أن تحتمل نور الشمس**" (فصل ٢٢: ص ١٤١)، ولذلك علينا أن نطلب هذه الاستنارة لكي نتقدس بشركتنا في قداسة روح الحق ولنسمع هذا التحذير الخطير "**لا توجد موهبة واحدة يمكن أن تُعطى للخليقة بدون الروح القدس ... ولم أعرف بعد شخصاً واحداً نال شركة الروح القدس ويقبل الاستهانة بكل ما ذكرته أو ينسى اشتراك الروح القدس في كل شيء مع الآب والابن أو يفصله عن الآب والابن**" (فصل ٢٤: ص ١٤٥).

إن تمييز النعمة يبدأ بالمسيح
وينتهي "في" المسيح

الفصل السادس

تمييز
حدود علاقتنا مع اللّه

من الأمور التي تحتاج إلى تمييزٍ دقيق، ما يقال عن الشركة في الطبيعة الإلهية. ما أسهل أن نقدِّم للقارئ عبارات كاملة غير مبتورة من كتابات كل الآباء دون استثناء، بل كلمات الوحي المقدس نفسه، بل وكلمات السيد المسيح ... لكن هذه اللمحة العاجلة الأكاديمية، لا تكفي.

لابد وان نميز حقيقة وجودنا نحن كبشرٍ، وحقيقة انتماء الإنسان للخليقة الكائنة بكلمة قدرة الابن (عب ١: ٣) قبل أن نميز شركتنا في الطبيعة الإلهية. لا نريد أن نجيب بنعم أو لا، هذا جوابٌ غير دقيق، هل نحن شركاء الطبيعة الإلهية؟ والجواب ليس نعمٌ، وليس لا، ولا هو بين الاثنين، وإنما السؤال الذي يجب أن يسبق هذا السؤال، هو كيف نفهم الخليقة، هل هي جاءت من العدم؟ وإذا كان الجواب بنعم، يصبح السؤال التالي: هل تستطيع الخليقة التي جاءت من العدم أن تبقى إلى الأبد بما تملك من قدرات؟ والجواب هنا دقيق جداً. إن ما يُخلق لا يمكن أن يكون أبدياً بالطبيعة، وإنما يصح أبدياً بالنعمة أي بنعمة وهبة الحياة الأبدية، وبالتالي إذا كان لنا رغبة وإيمان في أن تبقى الخليقة المنظورة أي الإنسان، وغير المنظورة أي رتب الملائكة في البقاء .. وجب علينا أن نقول إنَّ الشركة في أبدية الله ضرورية لبقاء البشر والملائكة.

وهنا علينا أن نعود مرةً ثانيةً إلى القديس باسيليوس لنتوقف عند قاعدة الإفراز اللاهوتي الدقيق التي سلَّمها إلينا الآباء، والتي دُوِّنت في كتاب الروح القدس للقديس

باسيليوس، وقبل ذلك في رسائل القديس أثناسيوس إلى سيرابيون، وهي أيضاً خاصة بالروح القدس.. تحدد لنا قاعدة الإفراز الدقيق هذه عدةَ أمورٍ هامة، مرجعها كلها هو الخلق من العدم، ولأن كل الكائنات خُلِقَت من العدم فهي:

١- لا تملك طبيعة واجبة الوجود، أي كائنة بذاتها.

٢- لا تملك القدرة على الاستمرار أو البقاء إلى الأبد، أي خالدة بالطبيعة.

٣- لا تملك صلاحاً أو خيراً طبيعياً نابعاً من كيانها أو جوهرها الذي خلقت به، أي أن كل الكائنات تنال الصلاح والخير من الله كمصدر لكل صلاح، وبالبقاء في حدود الطبيعة التي خلقت بها.

هذه المبادئ الثلاثة لا يمكن فضلها بالمرة، ولا يمكن تجاهلها لمن يريد أن يشرح الخلق والخلاص بأرثوذكسية سليمة، ذلك لأن خلف **المبدأ الأول** نسمع كلمات التعليم الرسولي: "إن كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان" (يوحنا ١١: ١-٢)، وكل الكائنات يحملها الابن بكلمة قوته (عب ١: ٣).

ويؤكد **المبدأ الثاني** إن البقاء في الوجود لا يعود إلى الكائنات، ولا إلى قدرتها وطبيعتها، بل إلى رحمة الله؛ لأنه خلق كل الأشياء وحفظها من السقوط، وأعطاها أن تبقى، وهي عطية الخلق والبقاء التي أعاد المسيح تجديدها بعطية أو هبة الحياة الأبدية. والفرق بين البقاء حسب حدود عطية الخلق، والحياة الأبدية، هو فرق كبير؛ لأن العطية الأولى هي عطية وجود حسب إرادة الخالق، أمَّا عند تجديد هذه العطية، فقد صارت عطية وجود بالشركة في الله، وذلك حسب عبارة رسول المسيح عن هذه العطية التي "أُظهرت الآن بظهور مخلصنا يسوع المسيح الذي أبطل الموت وأنار الحياة والخلود بواسطة (الخبر السار) الإنجيل" (٢ تيمو ١: ١٠).

أمَّا **المبدأ الثالث**، فهو يؤكد لنا معاني الكلمات السابقة عن التقديس وتكميل الخليقة، أي وصول الخليقة إلى غايتها، أي الاتحاد بالله أو الثبات في الصلاح كما يقول القديس باسيليوس: "**هذا التثبيت بكل يقين هو عدم الابتعاد عن الصلاح (الله). ومن الروح تأخذ هذه القوات شركتها مع الله وعدم قدرتها على التغيير إلى الشر والبقاء في السعادة**" (فصل ١٩: ص ١٣١). ويقول القديس باسيليوس إننا نحن البشر، في يوم الدينونة، سوف ننال

مضاعفة الروح القدس للنعمة في يوم الدينونة:

"وكل من يفكر حسنا، سوف يكتشف أنه في ظهور ربنا المرتقب من السماء لن يكون حضور الروح القدس في يوم الدينونة – كما يظن البعض – بلا فائدة، بل سوف يحضر الروح القدس أيضاً يوم ظهوره (الرب يسوع) ليدين المسكونة بالعدل، فمن الذي يجهل الخيرات التي أعدها الله لمن يستحقها إلاَّ من لا يعرف أن إكليل البر هو نعمة الروح القدس التي تُفاض بغزارة، وتُعطى بالكمال في ذلك اليوم الذي يوزِّع فيه (الروح القدس) المجد الروحي لكل من ناضل نضالاً نبيلاً شجاعاً" (ص ١١٦).

وقد سبق وأشرنا من قبل إلى كمال عطية نعمة الروح القدس في يوم الدينونة، من العربون إلى الملء أو غزارة وكمال هذه العطية، لكي نثبت ونتعلم الحياة السمائية التي سوف يعلنها الروح القدس لنا، والتي تُفاض بغزارة علينا. وقد ذكر القديس كيرلس السكندري في كتاب (العبادة بالروح والحق فصل ١٦) إن كلمات القديس بولس عن خضوع الابن للآب يوم الدينونة "حينئذ الابن نفسه أيضاً سيخضع للذي أُخضِع له الكل" (١كو ١٥: ٢٨)، إنما يعني الإعلان الأبدي الذي سيقدمه الابن للخليقة المفتداة المقدسة التي سوف تتعلم خضوع المحبة وطاعتها على المستوى الثالوثي الأزلي، لكي "يكون الله الكل في الكل" (١كو ١٥: ٢٨).

غاية الحياة الروحية الأرثوذكسية:

إن غاية الحياة الروحية الأرثوذكسية هي التشبُّه بالله، بالابن المتجسد الذي أعلن لنا الآب. هذا هو الخير الأعظم الذي يسعى إليه الإنسان. إذا فشلنا في تمييز هذه الحقيقة سقطنا في كل الهرطقات القديمة.

وبعبارة أخرى ليست غاية الخير في الأرثوذكسية مثل غاية الخير في الأريوسية؛ لأن الحياة الأخلاقية الأرثوذكسية لا تشبه الحياة الأخلاقية في الأريوسية في جوهرها وغايتها، فعلى سبيل المثال:

١- غاية الخير في الأرثوذكسية هي الاتحاد بالله بواسطة نعمة التبني في يسوع المسيح، بينما غاية الخير في الأريوسية هي حفظ الشريعة، أي اهتمام الإنسان بذاته كانسان، وبقاء الإنسان حياً حسب قانون الحياة البيولوجية والفسيولوجية، وليس حياً بقوة ونعمة الحياة الإلهية في يسوع المسيح. وقد ورد كل هذا تحت مسمى آخر هو مَثار نقاش حاد عندنا، وهو "الشركة في الطبيعة الإلهية"، الموضوع الذي تعرَّض لأكبر هجوم منذ القرن الرابع؛ لأنه هجوم يأتي من داخل الكنيسة، لا من الشيع.

نحن نعمل الخير بنعمة الله لكي نصل إلى الله، ولكي نتمتع باكتشاف عطية التبني في ربنا يسوع المسيح، بينما يعمل الأريوسيون الخير من أجل حياةٍ إنسانيةٍ فاضلةٍ لا تؤهل الأريوسي إلى الاتحاد بالله، بل تؤهله إلى بقاء السلوك الإنساني سلوكاً فاضلاً يعود فيه الإنسان إلى ذاته دون أن يتحد بالله. بعبارة أخرى السلوك الأخلاقي الذي لا يؤهِّل الإنسان للاتحاد بالله هو سلوك يؤدي إلى علاقةٍ خارجيةٍ بالله لا تجعل الله يسكن فينا ولا يحل في قلوبنا، وهو سلوكٌ يؤدي إلى انفصال الإنسان عن الله.

٢- وإذا كانت المحبة هي أعظم عطايا الله، أي أنها ليست المحبة على مستوى الطبيعة، بل المحبة الإلهية التي يسكبها الروح القدس نفسه في قلوبنا (رو ٥: ٥)، فإن هذه المحبة لا تجعل الشركة في الطبيعة الإلهية، بمثابة انعدام للفوارق بين الإنسان والله؛ لأن المحبة هي "محبة البشر"، فإذا ضاعت "الطبيعة الإنسانية"، وتحولت إلى طبيعةٍ لاهوتية - وهي ذات هرطقة أوطاخي - ضاعت محبة البشر من المحبة الإلهية، وبضياع هذه المحبة تصبح محبة الله محبة خاصة بكل ما هو إلهي فقط، وبذلك تختفي المحبة الخاصة بالبشر، أي تضيع غاية خلق الإنسان من العدم، بل وخلقه إنساناً "**خلقتني إنساناً كمحب للبشر**" (القداس الغريغوري).

وإذا كان الله محبة، وكانت محبة الله محبة متجهة نحو البشر في الابن المتجسد، وعجزت المحبة عن أن تسكب قوتها وشركتها في الحياة الإنسانية لكي تجعل الإنسان قادراً على أن يحب الله بذات المحبة التي يحبه بها الله، فَقَدَ التجسدُ غايته، ولم يعد للصلب والقيامة أيةُ فاعلية، في حين أن الأمر على خلاف ذلك؛ لأن التجسد أشرك الإنسانية في اللاهوت. والصلب أزال حاجز الموت. والقيامة أعطت الحياة والخلود. (٢ تيمو ١: ١٠).

وهكذا يجب أن ندرك إن إفراز الخير من الشر هو أصلاً إفرازٌ للتعليم الأرثوذكسي من التعليم المزيف الكاذب. فالخير الأعظم هو الله، والخير الحقيقي هو الاتحاد بالله حسب عبارات الرب يسوع المسيح: "الذي عنده وصاياي ويحفظها فهو الذي يحبني، والذي يحبني يحبه أبي، وأنا أحبه وأُظهر له ذاتي"، ثم يقول بعد ذلك مباشرة "إن أحبني أحد يحفظ كلامي، ويحبه أبي، وإليه نأتي (بالروح القدس حسب شرح معلمنا أثناسيوس) وعنده نصنع منزلاً" (يوحنا ١٤: ٢١ و ٢٣).

وعندما يجيء الثالوث لكي يعلن ذاته لنا، ولكي يصنع مكاناً له فينا كمنزل أو هيكل، فإننا لا يمكن أن نتصور أنَّ هذه شركة خارجية، بل كما يقول الرسول يوحنا "نحن أولاد الله .. إذا أظهر نكون مثله، لأننا سنراه كما هو وكل من عنده هذا الرجاء به يطهر نفسه، كما هو طاهر" (١ يوحنا ٣: ٢-٣).

فالإيمان بالشركة في الطبيعة الإلهية، هو الذي يجعلنا "أنقياء، قادرين على أن نتحول بنعمة ربنا يسوع المسيح وبرؤية مجده إلى "**صورة السمائي**". وإذا قال الرسول: "كما هو الترابي، هكذا الترابيون، كما هو السماوي، هكذا السماويون" (١ كو ١٥: ٤٨ - ٤٩)، فإننا لا نملك حسب الطبيعة المخلوقة أن نصبح بقدرة اللحم والدم "سمائيين"؛ لأن الرسول يقول لنا "إن لحماً ودماً لا يقدران أن يرثا ملكوت الله، ولا يرث الفاسد عدم فساد" (١ كو ١٥: ٥٠)، فكيف يمكن أن نتحول - أو حسب الترجمة الشائعة - "نتغير إلى تلك الصورة عينها من مجدٍ إلى مجد" (٢ كو ٣: ١٨) أي صورة المسيح نفسه؟ فهل تغيرت طبيعة المسيح إلى مجد اللاهوت بدون اتحاد بلاهوت الابن الكلمة؟ ألا يجدر بنا أن نستوعب الدروس الروحية التي أفرزتها مقالات القديس أثناسيوس الرسولي وغيره من الآباء الذين قاوموا البدعة الأريوسية؟ أم نترك الخلافات الشخصية التي ترتدي عباءة عقائدية - لكي تضفي على الخلافات صبغة ومسحة مقدسة - تطرحنا في ظلام الأريوسية نفسها؟

حدود علاقتنا بالله حسب قواعد الإفراز طبقاً لرسائل القديس أثناسيوس إلى سيرابيون:[١]

أولاً: الله ليس مثل الإنسان:

يقول القديس أثناسيوس إن طبيعة الله ليست مثل طبيعة البشر:

"لأن الله ليس مثل الإنسان وجوهره لا يتجزأ ومن أجل ذلك فإنه لم يتجزأ لكي يلد الابن ... والابن ليس جزءاً من الآب ... وكما أن الآب لم يكف أبداً عن أن يكون الآب الوحيد، هكذا فلن يكف الابن أبداً عن أن يكون الابن الوحيد" (١: ١٦ ص ٦٠-٦١).

ثانياً: الثالوث واحد، جوهره واحد ومصدر النعمة واحد:

"الثالوث القدوس المبارك هو غير منقسم وهو متحد في ذاته، وعندما يسمى الآب فهو الآب الذي يتضمن أيضاً كلمته والروح ... وعندما يسمى الابن يكون الابن في الآب، ولا يكون الروح خارجاً (بعيداً أو منفصلاً) عن الكلمة. لأن النعمة التي من الآب هي واحدة، وهي تتم بالابن في الروح القدس، لأنه يوجد إلهٌ واحد" (١: ١٤ ص ٥٧).

"نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله الآب وشركة الروح القدس مع جميعكم" (٢ كو ١٣: ١٣). لأن هذه النعمة والهبة تُعطى في الثالوث من الآب بالابن في الروح القدس، وكما أن النعمة المعطاة هي من الآب بالابن، هكذا فإنه لا يكون لنا شركة في العطية إلاَّ في الروح القدس. لأننا حينما نشترك فيه تكون لنا محبة الآب ونعمة وشركة الروح القدس نفسه" (١: ٣٠ ص ٨٧).

---

(١) راجع الترجمة العربية – مركز دراسات الآباء، مايو ١٩٩٤.

القاعدة الأولى: "الله ليس مثل الإنسان"

يبدو لنا أن هذه نقطة بسيطة نؤمن بها جميعا، ولا تقبل النقاش، فهي من الأمور البديهية ... هذا صحيح وحسن، ولكن لكي نطبق هذه القاعدة ونفصل ونميز بين الله والخليقة والإنسان بشكل - خاص - يجب علينا:

١- أنْ لا ننسب لله سقطات وضعفات الإنسان، لا سيما عندما ندرس التجسد والصلب بشكل خاص، وأنْ لا نُسقِط خطايا الإنسان على عمل الخلاص ... وأن لا نتصور أن المحبة الإلهية وكل ما يقال عن غضب الله هو كما نراه في البشر.

٢- أنْ نميز بين الاستعارة والتشبيه والمثل والمجاز والقصة، وأنْ ندرك أنَّ الاستعارات والتشبيهات والأمثلة والمجازات .. الخ لا يجب أنْ تُؤخذ بشكل حرفي؛ لأن ما يقال كاستعارةٍ عن الله لا يجب أن يصور لنا طبيعة الله كما لو كان واحداً من المخلوقات.

القاعدة الثانية: الثالوث واحد، وله نعمة واحدة وعمل واحد

إذا كان الآب في الابن، والروح في الابن والآب، صار من الضروري أن نرى لماذا يقول القديس أثناسيوس الرسولي إن مواهب الروح القدس هي مواهب الآب:

> "فالمواهب التي يقسمها الروح لكل واحدٍ، تمنح من الآب بالكلمة؛ لأن كل ما هو من الآب و من الابن أيضاً.وإذن فتلك الأشياء التي تعطى من الابن في الروح هي مواهب الآب. وحينما يكون الروح فينا فالكلمة الذي يعطي الروح يكون أيضاً فينا" (المرجع السابق ١: ٣٠ ص ٨٧).

> "إن فعل الثالوث هو واحد ... ولكن ما يعطى إنما يعطى في الثالوث والكل من إله واحد" (المرجع السابق ١: ٣١ ص ٨٧).

وهكذا لا نقسم الثالوث إلى آب يأخذ فديةً من الابن، أو ابن يقدم كفارةً للآب، أو روحٌ قدس يعطى مواهب هي ليست مواهب الآب.

ولماذا نحفظ وحدة الثالوث؟ ليس القصد من ذلك فقط هو الاحتفاظ بمبدأ سليم إيمانياً، لأن الأمر أبعد من مجرد الاحتفاظ بالإيمان، بل يتعلق الأمر بخلاص الإنسان ومصيره الأبدي، ولذلك يقول معلمنا أثناسيوس:

"دعونا ننظر إلى تقليد الكنيسة الجامعة وتعليمها وإيمانها الذي كان منذ البدء والذي أعطاه الرب وكرز به الرسل وحفظه الآباء، وعلى هذا (الإيمان) تأسست الكنيسة، ومن يسقط منه فلن يكون مسيحياً، ولا ينبغي أن يدعى مسيحيا بالمرة.

* يوجد ثالوث قدوس وكامل
* لاهوت واحد في الآب والابن والروح القدس
* الكل يبني ويخلق
* هو مساو وغير منقسم في الطبيعة
* فعله واحد، فالآب يعمل كل الأشياء بالكلمة في الروح القدس
* وهكذا نحفظ وحدة الثالوث القدوس سالماً. وهكذا يكرز بإله واحد في الكنيسة" (١: ٢٨ ص ٨٢ – ٨٣).

١- إنَّ وحدة جوهر الثالوث تعني التوحيد، كما يقول القديس أثناسيوس وبدون ذلك نصبح مشركين بالله.

٢- إنَّ عدم انقسام جوهر الثالوث يعني عدم انقسام المحبة الإلهية، وهي ذات المحبة التي يقول عنها القديس أثناسيوس "**فعل واحد**". ولو انقسمت محبة الله الثالوث ضاع كل ما يقال عن النعمة والمواهب والخلاص والأسرار الكنسية، بل أصبح مصير الإنسان مظلماً لأنه يدخل الحياة الأبدية في العالم الآخر حيث يرى الانقسام.

٣- إنَّ عدم انقسام الثالوث يعني أننا أبناء للآب بالابن في الروح القدس، وهذا ما تؤكده صلوات الكنيسة. وبالتالي تصبح دعوة الله لنا هي دعوة الله الواحد الذي يعمل كل شيء ويجمع الكل في وحدة واحدة.

الفصل السابع

معيار الصواب والخطأ في شركتنا مع اللّه

إذا كان الخير الأعظم هو التشبُّه بالله، وهو تشبهٌ مستحيلٌ بدون النعمة، وكما نرى لا يمكن للإنسان أن يختطف ما يخص الله؛ لأن الإنسان عندئذٍ يحكم على ذاته بالموت.

كيف نستطيع أن نتأكد من الذي في أيدينا هو معيار أو مقياس الحق الذي لا يمكن أن يخطئ؟ الجواب ليس من خلال نظريات الحق القانوني أو الحق في الفلسفة أو أي نظرية أخرى عن الحق؛ لأن الحق في كنيسة المسيح الأرثوذكسية هو "**الحق المتجسد**". هذا يطرح علينا الكثير من الأسئلة، ولكن نكتفي بما أعلنه الإنجيل: "أنا هو الطريق والحق والحياة"، وقائل هذه الكلمات ليس نظرية أو فكرة أو كتاب، بل هو شخص، هو يسوع، وبالتالي كل ميزان للحق – إذا كان للحق ميزان – لا ينتمي ليسوع المسيح هو ميزان كاذب، قد لا يكون ضاراً، قد لا يكون شريراً، ولكن إذا كان القصد والغاية هو أن نكون مثل المسيح في كل شيء، أصبح ميزان الحق أي يسوع نفسه هو الميزان المطلوب.

أولاً: تجسد الحق

الحق ليس فكرة مجردة يصل إليها الإنسان بالتأمل والبحث العقلي النظري، لأن الحق هو المسيح، هو الحق المتجسد: "أنا هو الطريق والحق والحياة"، وهكذا جمع المسيح في وحدة واحدة:

* الطريق الذي يؤدي إلى الحق

* الحق الذي يؤدي إلى الحياة

* الحياة التي هي حياة الله نفسه.

فالحق لا يستقر في الإنسان كفكرة فقط، بل هو ما نحيا به ونعيشه. هذا هو إنجيل المسيح، الحق الذي به وفيه نقوم. ومع سهولة "**به**" أي الوسيلة، إلاَّ أننا نقوم "**فيه**"؛ لأننا نقوم في المسيح، وقبل ذلك صلبنا ودفنا معه (رو ص ٦).

ثانياً: تجسد الحياة

الحق يؤدي إلى الحياة، والمسيح هو الحق وهو الحياة، ولذلك علينا أن نرى جيداً ما يؤكده القديس أثناسيوس؛ لأن غاية وجودنا في الحق، ونوال عطية الحياة هي الاتحاد بالله الثالوث، ولذلك يقول عن الروح القدس:

> "ولكي يكمل فيه كل معرفتنا عن الله، ويتمم كمالنا الخاص، الذي به وحدَّنا مع شخصه، ومن خلاله مع الآب أوصى تلاميذه اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس" (المرجع السابق ١: ٦ ص ٣٧ – ٣٨).

وهكذا – كما نعرف – إن الاتحاد بالله الثالوث يتم بواسطة الروح القدس في المعمودية المقدسة التي بها حسب التعليم الرسولي "**نتجدد**" وكما يقول أثناسيوس "**نتجدد بروح الله**" (١: ٩ ص ٤٦). والتجدد والتقديس يزيلان الانقسام، ويقدسان الكنيسة ويحولانها إلى كنيسة واحدة تشبه "**وحدة الطبيعة غير المنقسمة التي للثالوث القدوس**" (١: ١٧ ص ٦٣). وهكذا ندرك أن نعمة الاتحاد بالله الثالوث، هي نعمة تجعلنا حسب التعليم الرسولي، شركاء الطبيعة الإلهية، أي شركاء في النعمة الواحدة، والتقديس الواحد الذي يعطيه الثالوث، حسب عبارات القديس أثناسيوس:

> "كما أن المسيح ابن حقيقي، فإننا عندما نأخذ الروح نصير أبناء الله، لأن الكتاب يقول إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف، بل أخذتم روح التبني (رو ٨: ١٥). وإن كنا بالروح قد صرنا أبناء

فواضح أننا في المسيح ندعى أولاد الله (المرجع السابق ١: ١٩ ص ٦٦).

ويقول القديس أثناسيوس بعد ذلك:

"وحينما يُعطى لنا الروح القدس (يوحنا ٢٠: ٢٢)، يقيم الله فينا، لأنه هكذا كتب يوحنا إن أحب بعضنا بعضاً، فالله يقيم فينا، بهذا نعرف أننا نقيم فيه وهو فينا، لأنه أعطانا من روحه (١ يوحنا ٤: ١٢ – ١٣). وحيث أن الله يوجد فينا، يكون الابن أيضاً فينا (المرجع السابق ١: ١٩ ص ٦٧).

هذه الحقيقة الفائقة، أي انسكاب المحبة التي لا تنقسم والتي تجعلنا واحداً مع بعضنا، وفي المسيح هذا يجعل الحق هو اتحادنا بالله. والحياة هي حياة الواحدانية التي للقلب الواحد "**ثابتة فينا من خلال سكنى الله**".

ثالثاً: الحق والحياة كفكرة وكممارسة

وإذا تجسد الحق، وتجسد الحياة "أنا هو الحق والحياة"، أشرق نور الحق "أنا هو نور العالم" بشفاء الطبيعة الإنسانية من خلال التعليم، لأن التعليم هو نور المعرفة، ولكن التعليم لا يقف عند لمس الجانب العقلي أو الفكري في الإنسان، بل لأن تجسد الحق وتجسد الحياة أغلق الفجوة بين الفكر والقول والممارسة أو الفعل، وذلك لأن الرب نفسه قال "الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة" (يوحنا ٦: ٦٣)، فهو لم ينقل إلينا أفكاراً مجردة أو أفكاراً عن أي أمورٍ أخرى مهما كانت أهميتها، بل نقل إلينا "**الحياة**" أي حياته هو، وهو ما يشكل جوهر العبادة المسيحية أو الليتورجية حيث يعلن المسيح لنا حياته، فهو حسب ألفاظ أو كلمات الليتورجية الأرثوذكسية:

"طُهر العالم

"حياتنا كلنا

ولهذا السبب، فإننا نرى بكل يقين أن صلتنا بالمسيح ليست من خلال كلمات الوحي المقدس وحده، بل من خلال الروح الذي كوَّن المسيح في أحشاء القديسة مريم، والذي مسحه في الأردن، وهو ما أعطاه "**صفة المسيح**". هنا يجب أن نميز أن إلوهية

الرب يسوع لا تجعل ولا تسمح بأن تكون صلتنا به نابعة من شيء مخلوق مثل اللغة البشرية، حتى لو كانت لغة الوحي المقدس، أي الكتاب المقدس، بل من خلال الروح القدس، روح الله، ولذلك السبب يميز القديس أثناسيوس هذه القاعدة مؤكداً لنا أن مجال عمل الكلمة المتجسد هو مجال إلهي ندخله بواسطة الكلمة الإلهية في الأسفار المقدسة وهي البشارة والقوة الإلهية التي تقول كتبنا الليتورجية أنها "**أنفاس الله**" التي رغم أنها ترتدي ثوب الألفاظ البشرية، لكنها تحمل قوة إعلان الحق والحياة على مستوى الكلمة، وهي ذات القوة التي تخاطب الإنسان، أي تخاطب عقله، وتصبح هي الخطاب الإلهي الذي يتأنَّس أي يلبس ثوباً إنسانياً عندما يخاطب الإنسان لكي تفتح الكلمة الإلهية قلب الإنسان على النحو الذي نراه في صلوات الليتورجية الخاصة بالمعمودية المقدسة، وصلوات الموعوظين "**افتح مسامع قلوبهم**" "**أنر عيوننا وأفهامنا**"، وغيرها من الصلوات التي تقال أثناء القراءات الكنسية والتي تطلب نعمة الاستنارة لفهم الأسفار، وهي النعمة التي أعطاها الرب نفسه لتلميذي عمواس "فتح ذهنهم ليفهموا الكتب" (لوقا ٢٤: ٢٥). وهكذا حتى على مستوى الخطاب أو البشارة أو النطق، فإن ما يحدث ليس كلاماً يقال أو عبارات تنطق بقوة اللسان وحده، بل النطق واللفظ الذي يحمل للفكر بشارة الحياة وقوة الحق بالكلمة الإلهية. وهذا ليس هو بشارة الحق والحياة فقط، بل عندما نسمع كلمة الله، وندرك حقيقة هبة وعطية الحياة في المسيح، فإنَّ الروح القدس هو الذي يدخل إلى العقل والقلب لكي يحرك النفس والجسد نحو غاية الحق والحياة أي الاتحاد بالثالوث، وهذا ما يؤكده القديس أثناسيوس في هذه الفقرة:

> "أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم، صارخاً يا أبَّا الآب" (غلا ٤: ٦) وكتب بطرس أن عُيِّرتم باسم المسيح فطوبى لكم لأن روح المجد والقوة وروح الله يحل عليكم" (١ بط ٤: ١٤)، والرب دعا الروح "روح الحق" و"المعزي" (يوحنا ٤: ١٦، ١٧) مبينا بهذا أن الثالوث كامل به (بالروح القدس). ففيه الكلمةُ (الابن) يجعل الخليقةَ مجيدةً. وبه يمنح الخليقةَ الحياة الإلهية والتبني، وبذلك يجذبها إلى الآب. ولكن الذي يربط الخليقة بالكلمة (الابن) لا يمكن أن يكون واحداً من

المخلوقات. والذي يمنح التبني للخليقة لا يمكن أن يكون غريباً عن الابن. لأننا بغير الروح القدس (الله) لا نستطيع أن نجد روحاً آخراً به نرتبط نحن بالكلمة. وبالضرورة فإن أي روح آخر مخلوق لا يمكن أن يربطنا بالكلمة؛ لأنه من غير المعقول أن يربطنا روحٌ مخلوقٌ، بالله. ولذلك فالروح ليس واحداً من المخلوقات، بل هو في جوهر لاهوت الآب وفيه (الروح) يجعل الكلمة المخلوقات تشترك في الطبيعة الإلهية، وهو ما يجعل الذي فيه تشترك الخليقة في الطبيعة الإلهية، ليس مخلوقاً غريباً عن لاهوت الآب" (المرجع السابق ١: ٢٥ راجع ص ٧٨ من ترجمة مركز دراسات الآباء حيث تم تعديل النص على أساس النص اليوناني بقصد إيضاح معاني كلمات القديس أثناسيوس).

وهكذا لا يقدم لنا المسيحُ الحياةَ والحقَ، أو الحق والحياة كفكرةٍ مجردة أو رسالة عقلية، بل يؤكد لنا أن كلامه هو روح وحياة، وإنَّ ما يقال في بشارة الإنجيل إنما يؤدي إلى الاتحاد بالثالوث، وهو الاتحاد الذي يميز بشارة الإنجيل حيث يسكب الله حياته من خلال الابن وبالروح القدس، وهو ما يعرف في لغة الأسفار وصلوات الليتورجية باسم "**التقديس**". وهكذا – من الممارسة، وليس من نصوص الكتاب المقدس – يؤكد لنا القديس أثناسيوس إن الروح القدس هو روح الله لأنه روح اشتراكنا في الثالوث، فيقول:

"فلو كان الروح القدس مخلوقاً لما كان لنا اشتراك في الله بواسطتنا. فإن كنا قد اتحدنا بمخلوقٍ، فإننا نصبح غرباء عن الطبيعة الإلهية لأننا لم نشترك فيها. أمَّا الآن، فلكوننا نُدعى شركاء المسيح وشركاء الله، فهذا يوضح أن المسحة والختم الذي فينا (الذي يعطى في سر الميرون) ليس من طبيعة المخلوقات، بل من طبيعة الابن الذي يوحدنا بالآب بواسطة الروح الذي فيه. هذا ما علمنا إياه يوحنا – كما قيل سابقاً – عندما كتب: "بهذا نعرف أننا نثبت في الله وهو فينا أنه قد أعطانا من روحه" (١ يوحنا ٤: ١٣). ولكن إن كنا بالاشتراك في الروح نصير شركاء الطبيعة الإلهية (٢ بط ١: ٤)، فإنه يكون من

الجنون أن نقول إن الروح من طبيعة المخلوقات وليس من طبيعة الله. وعلى هذا الأساس فإنَّ الذين هم فيه (الروح القدس) يتألهون. وإن كان هو يؤلِّه البشر Theopoieo، فلا ينبغي أن يشك أحد أن طبيعته (أي طبيعة الروح القدس) هي طبيعة إلهية" (المرجع السابق ١: ٢٤ ص ٧٥ - ٧٦. راجع الملاحظة رقم ٢٤ ص ١٦٣ - ١٦٤ على نص القديس أثناسيوس في ترجمة مركز دراسات الآباء).

رابعاً: تمييز عناصر الشركة في الطبيعة الإلهية

نحن لا ننكر صعوبة تعبير "الشركة في الطبيعة الإلهية"، وتعبير "تأليه البشر"، ذلك أن البيئة والمجتمع والثقافة غير المسيحية لا ترغب في أن تسمع عن سُكنى الله أو حلول الله في الإنسان، أو شركة الإنسان في الحياة الإلهية. وهذا بالذات هو ما يؤكد ضرورة أن يتقن كل مسيحي - يحيا في مجتمع له ثقافة غير مسيحية - التمييز بين عناصر الشركة في الطبيعة الإلهية، وأسباب هذه الشركة حتى لا يسير في طريق آخر غير طريق الحق والحياة، أي أن يخلق لنفسه "**مسيحاً**" آخر غير "**يسوع المسيح**" لأن هذا المسيح الآخر ليس سوى عودة إلى الوثنية، وهي وثنية أخطر من الوثنية القديمة؛ لأنها:

١- لها الشكل المسيحي، وتعتمد على نصوص مقدسة من الوحي نفسه.

٢- ترتدي عباءة المسيح، أي تأخذ اسمه، وتكتسب بذلك شرعيةً وقداسةً.

ما هي عناصر الشركة في الطبيعة الإلهية؟

أي ما هي هذه العناصر التي تجعل الإنسان شريكاً في الطبيعة الإلهية، أي حياة الله نفسه؟

١- خلق الإنسان على صورة الله ومثاله (تكوين ١: ٢٦). وعندما ننسى حقيقة خلق الإنسان على صورة الله، ننسى أن الإنسان - حسب قصد الله نفسه - قد خلقه الله بطبيعة عاقلة مؤهَّلة لأن تنال الشركة في الطبيعة الإلهية. فالطريق إلى التدين الصحيح حسب الإنجيل يبدأ بتمييز حقيقة وكيان الإنسان، الذي رغم أنه مخلوقٌ من العدم، إلاَّ

أن طبيعة الإنسان مؤهَّلةٌ لأن تنال عطية الشركة في الله بواسطة عطية ونعمة الصورة الإلهية، وهي الكيان الإنساني نفسه المخلوق على مثال الكيان الإلهي.

٢- وعطية الصورة الإلهية هي دعوة للشركة في محبة الله، أي محبة الأصل الذي خُلقنا نحن على صورته، ولذلك عندما يشرح القديس أثناسيوس عبارة الرسول بولس: "نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس مع جميعكم" (٢كو ١٣: ١٣)، فإنه يؤكد أن النعمة والشركة هي نعمة وشركة في المحبة، فيقول:

> "لأن هذه النعمة والهبة تعطى في الثالوث من الآب بالابن في الروح القدس، وكما أن النعمة المعطاة هي من الآب بالابن، هكذا فإنه لا يكون لنا شركة في العطية إلاَّ في الروح القدس. لأننا حينما نشترك فيه تكون لنا محبة الآب ونعمة وشركة الروح نفسه" (المرجع السابق ١: ٣٠ ص ٨٧).

وهكذا إذا غابت **مركزية المحبة** عن أي دين أو مذهب، فإن هذا الغياب يجعلنا قادرين على أن نميز بدقة أن كل الكلام الذي يقال ضد إمكانية الشركة في المحبة، أي في طبيعة اللاهوت الذي هو محبة، هو كلام عائد إلى أن للدين أو المذهب رسالة أخرى لا تؤكد أن الإنسان هو صورة الله. وعندما تغيب مركزية المحبة، تحل محل المحبة **مركزية الشريعة** ويظهر لنا على الفور أن علاقة الإنسان بالله - المحصورة في الشريعة - لا تسمح مهما كانت مقاصد وغاية الشريعة أن تعطى للإنسان علاقة خاصة داخلية بين الأصل "**الله**" و"**الصورة**" الإنسان.

وكما سنرى من كتاب الروح القدس للقديس باسيليوس، وفي كل كتابات الآباء، وفي رسائل القديس أثناسيوس الرسولي أن علاقة الله بالخليقة العاقلة الملائكة والبشر تقوم على دعامتين:

الأولى: الوجود، والثانية: الشركة.

الدعامة الأولى، هي الكينونة والوجود حيث ينال الكائن العاقل كياناً يؤهِّله لمعرفة الله، هذه المعرفة وإنْ كانت تقوم على رؤية خارجية إلاَّ أن هذه الرؤية ليست معرفة تعتمد على قدرات الكائن العقلية فقط، بل تعتمد أيضاً على ما أعطاه الله نفسه لكل كائن عاقل من قدرات عقلية تشبه قدرات الله. وهنا لا تنقسم المعرفة إلى قسمين: معرفة بالله،

ومعرفة الكائن العاقل بذاته، بل تؤهِّل معرفة الإنسان أو الملاك بذاته لإدراك وتكوين صورة يقول عنها سفر الحكمة وكتاب تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس إنها "**معرفة الإنسان بأزلية الله**" (تجسد الكلمة فصل ٣ - فصل ٤).

وهنا بشكل خاص تصبح المعرفة بالله هي في نفس الوقت شركة في الله، وهذه هي **الدعامة الثانية**، وهي شركة - قبل أي شيء آخر - في محبة الله. وعن هذا يقول القديس أثناسيوس في الرسالة الثانية إلى سيرابيون ما يلي:

"كل الأشياء المخلوقة لم يكن لها وجود، أي صارت موجودة، ... لكن الابن كائنٌ وإلهٌ على الكل مثل الآب، وبه صار للأكوان الوجود ... وليس من بين المخلوقات ما هو بالطبيعة إله، بل كل ما جاء إلى الوجود قد دُعي حسب طبيعته: دُعي البعض سماءً، والآخر أرضاً ... وأخيراً الإنسان ... وهكذا يظل كل واحد من المخلوقات كائناً حسب الطبيعة التي خُلِقَ بها. ولكن إن كان البعض قد دُعي آلهةً من المخلوقات، فهذا الاسم لا يحدد الطبيعة، بل يحدد اشتراك المخلوقات في الابن" (المرجع السابق ٢: ٤ راجع طبعة مركز دراسات الآباء ص ٩٨ - ٩٩).

وبعد ذلك يؤكد أثناسيوس أن الطبيعة والجوهر المخلوق "**لا يستطيع أن يقول كل ما هو للآب فهو لي**" (يو ١٦: ١٥) لأن كل كائن له بداية، فهو غير أزلي، وقابل لكل التغيرات. والفاصل هنا ليس الزمان والأبدية وإنما هو البدء، فالابن مولود من ذات جوهر الآب، والكائنات جاءت من العدم، وهنا الفرق كبير جداً بين ما هو كائنٌ وبالطبيعة يملك كيانه، وما هو مخلوق من العدم ويأتي إلى الوجود ولا يملك كيانه أو وجوده. هذه ليست نقطة فرعية، بل هي نقطة اختلاف جوهرية؛ لأن الله حدد لكل مخلوق طبيعة، وأعطاها أن تتشبه به حسب النعمة التي أعطاها لها. ولو كان التشبه بالخالق يعني التطابق التام بين الخالق والمخلوق لوجب علينا أن نقول بأن الله مخلوق، لأن التطابق التام يعني الشركة في كل شيء، ويعني أن يكون الله مخلوقاً، وهو ما ينفي عنه الإلوهة .. وهذا باطلٌ، بل محض كفرٍ.

٣- والمحبةُ كهبة أو عطية لا تسمح بالشركة الخارجية والعلاقة الخارجية بين الخالق والمخلوق؛ لأن المحبة لا تقف عند حدود وفواصل وموانع، فالمحبة المحدودة هي محبة تجعل الوسيط هو الشريعة. أمَّا المحبة الكاملة في يسوع المسيح، تلك التي أُعلنت لنا بالتجسد والصلب والقيامة، وانسكاب الروح، تجعل الوسيط هو الله نفسه، أي محبته، التي تعلن محبته وتدعو الإنسان لأن يقبل هذه المحبة بالابن وفي الروح القدس. وعطية المحبة تُعلَن عندما يعطي لنا الآب بالابن – بصمة الابن – أو صورة الابن، حتى أن من ينال بصمة الابن أو صورة الابن يتصور فيه المسيح (غلا ٤: ١٩). (راجع المرجع السابق ٣: ٣ ص ١١١).

فالصورة هي الملامح الإلهية غير المخلوقة من العدم التي توهب للإنسان من أجل قيام شركة حقيقية تُعطى فيها نعمة الله أن تسمو محبة المخلوق بقوة المحبة غير المخلوقة للتمتع بالمحبة الإلهية.

خامساً: النعمة غير المخلوقة[1]

يبدو لنا في البيئة والمجتمع غير المسيحي الذي تقوم ثقافته على الفصل التام بين الخالق والمخلوق واستحالة كل أنواع ومستويات الشركة، أن علاقة الله بالإنسان لا تتجاوز التمتع – عند الطرفين – إلاَّ بما هو مخلوق فقط. فالله يعطي للإنسان كل ما هو مخلوق من العدم، والإنسان لا يمكنه الاقتراب من مجال الحياة الإلهية بالمرة. هذا الانفصال يغذي الثقافة الإنسانية والحياة الروحية – ليس فقط – بسيادة القانون على كل شيء، بل أيضاً بعدم تطور الإنسان ونموه. ومرجع كل هذا إلى عقيدة الخلق من العدم، وما إذا كان الخلق من العدم يحتوي على نعمة أخرى أعظم من نعمة الوجود. فكل الكائنات تشترك في نعمة الوجود، ما عدا الكائنات العاقلة التي تنال عطية العقل، وهي التي تجعل الكائنات العاقلة تسمو فوق ما هو مادي وكائن بنعمة الوجود فقط. **فما هي النعمة التي تسمح لنا بأن ندخل مجال الحياة غير المخلوقة لكي نحيا على مثالها وبشركة معها وفيها؟**

---

(١) استخدمت كنيستنا المقدسة هذا التعبير في صلاة تقديس الكأس والصينية.

يقول القديس أثناسيوس:

"الأشياء المخلوقة بالكلمة (الابن) تنال قوة الوجود من الكلمة بالروح" (المرجع السابق ٣: ٥ ص ١١٤).

والوجود – حسب التسليم الرسولي – هو وجود حسب نعمة الخلق، ووجود حسب نعمة الصورة. وعندما يقول القديس أثناسيوس: "**إن الله أشفق على الجنس البشري إذ رأى أن البشر عاجزون عن البقاء الدائم والثبات في الصلاح أعطاهم نصيباً من القوة العاقلة أي قوة الكلمة**" (تجسد الكلمة فصل ٤)، فهو يؤكد هنا ذلك الوجود الذي تسمو فيه الطبيعة الإنسانية المخلوقة من العدم، لكي تدخل "**بنور الكلمة أو اللوغوس** Logos" المجال الإلهي للحياة الإلهية. هنا التمييز بين المخلوق والخالق ضروري لتأكيد الاختلاف وبقاء الطبيعة المخلوقة في حدود الطبيعة التي أعطيت حسب نعمة الوجود، فهي الأساس الراسخ الذي يسمح للطبيعة المخلوقة بأن ترتفع بقوة اشتراكها في فهم وتأمل طبيعة الله، الذي أعطى للإنسان هذه النعمة، والتي تؤكدها الليتورجية "**أعطيتني علم معرفتك**"، و"**ليشرق فينا نور علمك الإلهي**"، أي نور معرفتك لكي نتمكن من السمو والارتقاء – كما يقول القداس – وندخل دائرة الشركة. وربما ما يساعدنا على الاقتراب بدقة أرثوذكسية من هذه النقطة، هو تقديس الخبز والخمر في الإفخارستيا. يقول القديس أثناسيوس:

"ولنسأل كم عدد البشر الذين يمكن أن يُقدِّم لهم (ربنا يسوع) جسده المادي؟ وماذا عنه كغذاء للعالم كله؟ لهذا السبب تحدَّث عن صعود ابن الإنسان إلى السماء لكي يُبعد عن أفكارهم كل التصورات المادية عن جسده، ولكي يفهموا جيداً – بدون أي تصورات مادية – إن جسده الذي يتكلم عنه هو طعام سمائي يأتي من فوق كغذاء روحي يعطيه هو بنفسه. وحقاً قال "الكلام الذي أكلمكم به روح وحياة" (يو ٦: ٦٣) أي أن ما أعلنه وما سيعطيه لخلاص العالم هو جسده، ولكن هذا الجسد عينه بما فيه من دم سوف يعطى لكم بواسطتي روحياً، وكطعام وبطريقة روحية سوف يوزَّع على كل واحدٍ منكم لكي يصبح عربون القيامة والحياة

الجديدة" (الرسالة الرابعة. ترجمة د. جورج حبيب بباوي. راجع الرسائل عن الروح القدس إلى الأسقف سيرابيون - مركز دراسات الآباء، مايو ١٩٩٤ ص ١٤٧ - ١٤٨).

وهنا نستطيع أن نرى بكل وضوح أن الجسد المادي الكائن حسب نعمة الوجود لا يمكن أن يوزَّع مادياً على العالم كله، بل لابد وأن ينتهي، ولكن لأنه يؤكَل ولا ينتهي، فهو يوزَّع حسب نعمة الحياة الأبدية، ويوزَّع روحياً لكي يهَب عربون القيامة والحياة الأبدية. وهكذا جاء كل ذلك الزخم والفيض الإلهي ليس حسب ما نراه في عالم المادة، بل حسب عطية المسيح "**هذا الجسد عينه بما فيه من دم سوف يعطى لكم بواسطتي روحياً وكطعام وبطريقة روحية سوف يوزَّع على كل واحد منكم**". وبذلك يقول القديس أثناسيوس أن هذا التغيير، وإن كنا نراه في الخليقة الأولى بشكل جزئي، إلاَّ أننا صرنا نراه في الخليقة الجديدة في المسيح بشكل كامل وسري:

"الله ليس من طبيعة مادية محصورة في مكان، بل إنه روح. وهذا ما يعنيه كلام التعليم الذي يقول عندما يتأمل الكلمة وقد تجسد: "روح الإيمان هو المسيح الرب" (الرسالة ٤: ١٩ ص ١٤٨).

وعندما تجسد الرب فقد كان الكلمة غير المائت والذي لا يمكن لمسه لأنه هو الحياة، بل هو في جوهره الحياة نفسها (رسالة ٤: ٢٠ ص ١٤٩).

وهنا يجب أن نرد العطية وأساس الشركة، ليس إلى القوانين المادية والبيولوجية، بل إلى المسيح نفسه؛ لأنه هو اللوغوس Logos الحي الكائن بالأُقنوم الإلهي في الثالوث الذي يعطي المعرفة والشركة في الطبيعة الإلهية والميلاد الثاني وجسده ودمه حسب النعمة، وهذا يمكن الإشارة إليه على النحو التالي:

١- إنَّ اتحاد اللاهوت بالناسوت هو مصدر النعمة التي تنبع من اللاهوت وتُعطى بشكل منظور ومادي في مياه المعمودية، وزيت مسحة الميرون، والخبز والخمر في الإفخارستيا، وهي نعمة إلهية بحتة، جوهرها إلهي وإعلانها مادي ومنظور على مثال الأصل الذي نبعت منه وهو تجسد ابن الله.

٢- إنَّ القيامة هي التي حولت الفاسد إلى عدم فساد، والضعيف إلى قوة، وما مَن طبعه الهوان إلى مجد (١كو ١٥: ٤٣). وعدم الفساد والقوة والمجد هي صفات اللاهوت، ولكن عندما قام الرب بجسده أبطل كل هذه الضعفات بسبب اتحاد عديم الفساد بالفاسد، أي الناسوت. وعديم الموت والذي جوهره هو الحياة بالمائت، والذي هو القوة بالضعيف، والذي هو المجد بما من طبعه الهوان .. هذا الإعلان الإلهي الذي تؤكده الليتورجية "**أشرق جسدياً من العذراء**" لا يمكن أن نفصل فيه بين الخالق والمخلوق – في الابن الكلمة – ما هو إلهي عما هو إنساني.

الفصل الثامن

تمييز الحق والباطل
على أساس شخص وعمل المسيح

عندما قال القديس إيريناوس "**إننا نمارس ما نصليه، ونصلي ما نمارسه**"، فقد كان يعلن ذلك المبدأ الكبير:

"المسيح هو المسيحية، والمسيحية هي المسيح"

فما هو في المسيح خاص بنا نحن البشر، وما لا وجود له في المسيح، لا يخص المسيح، ولا يخص المسيحية، وبالتالي لا يخص البشر، أي الذين يؤمنون به.

وعندما تجسد الكلمة، وصار كواحد منا، ساكناً بيننا بالجسد – بعد أن كان ساكناً بيننا بالروح، أي كإله – تغيَّرت، ليس فقط اللغة والرسوم العلاقات، بل تغيَّر كل شيء، وهو ما جعل الكنيسة تقول: "كل الخليقة تهللت بمجيئك".

المسيح هو الملء

المسيح هو كل شيء، وهذه نظرة سريعة على أبسط حقائق الإيمان:

* الإنجيل بشارة الخلاص، ليس مجرد إنجيل، بل هو إنجيل المسيح (رو ١: ١٦).

* المسيح هو حياتنا كما نقول في أوشية الإنجيل، ونحن نحيا فيه وهو يحيا فينا (غلا ٢: ٢٠).

* المسيح هو الرأس (أف ٤: ١٥) ونحن أعضاء جسده (١كو ٦: ١٥)، بل "أعضاء المسيح" (١كو ٦: ١٥).

* المسيح هو شريعة الحياة الجديدة (رو ٨: ٢).

* المحبة، ليست فقط المحبة، بل هي محبة الله في يسوع المسيح (رو ٨: ٣٥). وهي محبة المسيح (٢كو ٥: ١٤)، المحبة التي أحبنا بها المسيح (أفسس ٥: ٢).

* المعمودية هي ختان المسيح (كو ٢: ١١).

* المسيح هو خادم الحياة الجديدة، وليس خادم الخطية (غلا ٢: ١٧). ونحن لنا خدمة الحياة وخدمة الروح، وخدمة المجد (٢كو ٣: ٤ - ١١).

* المسيح هو الباكورة الحية التي لا تموت (١ كو ١٥: ٢٣)، ولذلك نحن شركاء المسيح (عب ٣: ١٤).

* الصبر ليس مجرد صبر، بل هو صبر المسيح (٢ تس ٣: ٥).

* الطاعة ليست مجرد طاعة، بل هي طاعة المسيح (٢كو ١٠: ٥).

* التعليم هو أن نتعلم المسيح، ليس أن نتعلم عن المسيح (أفسس ٤: ٢٠) وحتى الكلمة التي نبشر بها هي كلمة المسيح (كولوسي ٣: ١٦).

* نحن لا نحيا فقط للمسيح، بل نلبس المسيح (غلا ٣: ٢٧)؛ لكي تكون لنا ليس فقط الوداعة، بل وداعة المسيح (٢كو ١٠: ١).

ولو سمح المجال لوجدنا أن المسيح يضم كل شيء، الجسد، الروح، الفكر، الحياة الحاضرة، الحياة الآتية، لا يوجد شيء ليس فيه المسيح، ولا يوجد شيء خاص بالحياة الروحية أو الجسدية ليس من المسيح ... وهكذا يجب أن يقف المسيح عند كل شيء، ويجب أن نراه في كل ممارسة، وإذا تعذَّر علينا ذلك، وجب علينا أن نسأل: هل هذا من المسيح؟ هل هذا هو فكر المسيح (أي فهمه الخاص وليس مجرد أفكاره)؟ هل هذه ممارسة المسيح؟ هكذا تعلَّمنا من الأب أشعياء الأسقيطي أن نسأل هذا السؤال الخطير: هل هذا من المسيح، أم ضد المسيح؟

والمسيح الذي يضم كل شيء، ويضم في أُقنومه الآب والروح لأنه واحد معهما في الجوهر، والذي يجمع كل الخليقة بكلمة قوته (عب ١: ٣)، هو المجال الذي نتحرك فيه.

أولاً: في المسيح كوسيط

يقول الرسول: "كان الله في المسيح مصالحاً العالم لنفسه" (٢كو ٥: ١٩)، وتمتد

هذه الوساطة لتجعل المسيح ليس مجرد وسيط يقف سلبياً بين الله والإنسانية، بل يقول الرسول: "ربنا يسوع المسيح الذي به نلنا المصالحة الآن" (رو ٥: ١١). وهكذا لم يتم الفداء في فراغ، بل "الفداء الذي بيسوع المسيح ... كفارة بالإيمان بدمه" (رو ٣: ٢٣ - ٢٤). والدم الذي سفك على الصليب هو دم الحياة، دم الذي قال أنا هو الحياة، ولذلك يقول الرسول – رغم مرور السنوات على موت الرب على الصليب – "نحن متبررون الآن بدمه، نخلص من الغضب" (رو ٥: ٨).

وقبل أن يكون المسيح هو الفادي، هو الخالق الذي به خُلِقت كل الأشياء (كولوسي ١: ١٦)، ولذلك لم يكن ملكوت المسيح جديداً على المسيح، بل هو مؤسِّسهُ، وهو مسرح عمل قوته "نقلنا إلى ملكوت ابن محبته" (كولوسي ١: ١٣). والمجال لا يسمح بالكلام المفصل عن الوساطة، ولكن المسيح هو كل شيء.

ثانياً: أن نكون "في المسيح" لحياة ووجود جديد:

يقول الرسول: "إن كان أحدٌ في المسيح، فهو خليقة جديدة" (٢كو ٥: ١٧). هذه الخليقة الجديدة يراها بولس بكل وضوح "ما كان لي ربحاً (الخليقة الأولى، بر الناموس، الأصل العرقي، المعرفة باليهودية) فهذا قد حسبته من أجل المسيح خسارة ... لكي أربح المسيح وأُوجد فيه" (فيلبي ٣: ٨ -٩)، وبولس يريد لنا أن نوجد في المسيح كأبناء الله، وليس كعبيد (غلا ٢٦ - ٢٨)؛ لأننا لا نستطيع أن نحيا لله إلاَّ بالمسيح "احسبوا أنفسكم أمواتاً عن الخطية، ولكن أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا" (رو ٦: ١١)، وهكذا "نحن مقدسين في المسيح يسوع" (١كو ١: ٢) هذا وحده هو الذي يجعل الرسول يقول: "لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع" (رو ٨: ١). وفي المسيح نستطيع كل شيء، ومع رسول المسيح نقول: "أستطيع كل شيء في المسيح يسوع" (فيلبي ٤: ١٣) وهذا ليس شيئاً قليلاً، بل يقول عنه بكل فخر واعتزاز: "أخيراً يا أخوتي تقووا في الرب وفي شدة قوته" (أفسس ٦: ١٠)؛ لكي نستطيع أن نفرح بالرب (فليبي٣: ١ - ٣: ٤). حياة جديدة فيها ثقة وشجاعة (فليمون: ٨) ورجاء في المسيح (فيلبي ٢: ١٩) وثقة بالرب (فيلبي ٢: ٢٤). وهذا يحتاج إلى ثبات (فيلبي ٤: ١) ولكنه ثبات في المسيح، لكي "نسلك أو نسير فيه" (كولوسي ٢: ٦).

وعندما نقبل صديقاً، فإنه من الأفضل أن يكون "مزكىً في المسيح" (رو ١٦: ١٠)، وتعب الخدمة في المسيح (١كو ١٥: ٥٨ - ١كو ٩: ١) حتى يكون الذين يخدمون معنا هم أخوة في الرب، في يسوع المسيح (كولوسي ٤: ٧). والآباء والمرشدين يجب أن يكونوا أولاً في المسيح حتى نسمع لهم (١كو ٤: ١٥) إذا كانوا قد قبلوا خدمة من المسيح (كولوسي ٤: ١٧) وهذه الخدمة هي التي جعلت بولس "أسير الرب" (أف ٤: ١).

ثالثاً: وحدة المؤمنين في المسيح

يقول الرسول "الكنائس ... التي في المسيح" (غلا ١: ٢٢ - ١ تس ٢: ١٤) وكل بيت مسيحي هو في الرب (رو ١٦: ١١) والعلاقات الأسرية والكنسية هي علاقات الأخوة في الرب وفي المسيح يسوع (كو ٢: ١٢ - فيلبي ١: ١٤). بل حتى الراقدين هم في المسيح (١ تس ٤: ١٦ - ١كو ١٥: ١٨). وهكذا نحن جميعاً واحد في المسيح (غلاطية ٣: ٢٨) لأننا جسد المسيح الواحد (١كو ١٢: ١٢)، ولذلك السبب نحن نقبل الأخوة بفرح في الرب (فيلبي ٢: ١٩). ومدهش حقاً هذا التعبير "سلموا على كل قديس (مؤمن) في المسيح يسوع" (فيلبي ٤: ٢١).

رابعاً: نحن مِلكٌ المسيح والمسيح مِلكٌ لنا

نملك المسيح ويملكنا المسيح، وهي هنا صيغة المضاف "الذين هم للمسيح يسوع" (غلا ٣: ٢٩ - ٥: ٢٤) ولذلك يسأل بولس: "أنا لبولس وأنا لأبولس .." (١كو ١: ١٢) وهنا يسأل الرسول: "ألعل بولس صلب لأجلكم، أم باسم بولس اعتمدتم" (١كو ١: ١٣). فالصليب والمعمودية هما ختم امتلاك المسيح لنا، ولذلك يقول عن المؤمنين "الذين للمسيح" (١كو ١٥: ١٣). ونحن نملك المسيح بالروح القدس الذي أعطاه لنا المسيح "إن كان أحد ليس له روح المسيح فذلك ليس له (المسيح)" (رو ٨: ٩) والمسيح يحل بالإيمان (أي بالاعتراف به وعدم تجاهله) في قلوبنا" (أفسس ٣: ١٤ - ١٩). نظراً لسيادة المسيح علينا نحن نحتاج إلى أن نعرف "صبر المسيح وهو صبر الله (لأن المسيح هو الإله المتجسد) (٢ تس ٣: ٥)، لأن تعبنا في الرب (١كو ١٥: ٢٨). ويصل بولس إلى قمة نعمة

الحياة في المسيح "وارثون لله في يسوع المسيح، ووارثون ليسوع المسيح، ومع المسيح ورثة" (رو ٨: ١٧ - ١كو ٦: ١٩).

خامساً: المسيح فينا

يحل المسيح فينا بالروح القدس، لكي يقوم جسدنا المائت مع المسيح (رو ٨: ٩) "إذا كان المسيح فيكم فالجسد ميت"، هكذا ندرك وجود أو حضور المسيح فينا من خلال عمل الروح القدس الذي به ننال التبني "لأنكم أبناء أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخاً أبّا أيها الآب" (غلا ٤: ٩).

وبسبب حلول المسيح فينا صار لنا فكر νους وتعني حرفياً mind (١كو ٢: ١٦). عقل أو فكر المسيح عند بولس هو عقل روحي، لأن الرسول يقول: "من عرف فكر νοῦς الرب، من يعرف فكر الإنسان إلاَّ روح الإنسان وهكذا فكر الرب νοῦς لا يعرفه إلاَّ روح الرب. ويؤكد هذا المعنى ما يقول الرسول "وحيث روح الرب هناك حرية الفكر، حرية العقل" (٢كو ٣: ١٧). هذا هو مجال "مؤازرة روح يسوع المسيح" (فيلبي ١: ١٩). ولا يوجد ما يجعلنا نبتعد عن فكر الرب أو قوة الرب (كولوسي ١: ٢٩) وهو ما يجعل الرسول يقول: "أستطيع كل شيء في المسيح يسوع الذي يقويني" (فيلبي ٤: ١٣). والشدائد تجعل المسيح حاضراً فينا بقوته، لذلك افتخر بالضعفات والشدائد "لكي تحل فيَّ قوة المسيح" (٢كو ١٢: ٩).

المسيح فينا بالروح القدس (رو ٨: ٩ - رو ٨: ١١ - ١كو ٣: ١٦ - ١ تيمو ١: ١٤) لكي يشهد لأرواحنا (رو ٨: ٢٦)، ولكي يقود حياتنا في المسيح ويعين صلواتنا (رو ٨: ١٤) ولكي نحب المسيح ونحب الآب ونحب الروح القدس نفسه الذي يسكب محبة الله في قلوبنا (رو ٥: ٥). ونحن نأخذ الروح ونشرب الروح كما نشرب الماء (١كو ١٢: ١٣) - (راجع ٢كو ١١: ٤). وسكنى الروح القدس تجعلنا هياكل الله الحي لأننا نحن هيكل الله الحي الذي يختلف عن هيكل العهد القديم المبني بحجارة ميتة لا حياة فيها. وهكذا كما كان الله يسكن في وسط شعبه، وهنا ينقل الرسول معنى هذه السُكنى "أنتم هيكل الله الحي، كما قال إني سأسكن فيهم وأسير بينهم أكون لهم إلهاً ويكونون لي شعباً" (٢كو ٦: ١٦)، وسكنى الله

فينا – كما نرى – ليست سكنى مواهب، بل حضور الله، لأن هيكل الله الحي لم يكن له موهبة أو عطايا بنوة أو غيرها، بل حضور وسكنى الله. وهو ذات الوعد الذي وعدنا به ربنا يسوع المسيح (يوحنا ١٤: ٢٣). وربما لاحظ القارئ أن التعبير الطقسي "**القبة**" هو في اليونانية أو القبطية "**الأسكنة**" من الفعل سكن بحسب الترجمة السبعينية Kataskenwsis – Κατασκενωσις (حزقيال ٣٧: ٢٧) ولكن هنا السُكنى في العهد الجديد صارت في الهيكل الجديد يسوع المسيح الذي "حل فيه ملء اللاهوت جسدياً" لكي نمتلئ نحن فيه وبه وعندما يحل فينا الله تظهر مواهب الروح حسب شرح الرسول بولس فالمواهب تعلن الله وسكناه فينا وهكذا يقول الرسول "الله بالحقيقة فيكم" (١كو ١٤: ٢٥).

فيض النعمة بالنعمة

شاع عندنا استخدام تعبير "وسائط النعمة"، وهو تعبير غربي كاثوليكي لا وجود له في كتب الليتورجية ولا في كتب الآباء. والتعبير ليس خطيراً، ولكنه يعطي اسماً لغير المسمى، أي يعطي الاسم غير الحقيقي لما هو حقيقي. فالإفخارستيا ليست من وسائط النعمة، بل هي النعمة، هي المسيح، هي الحياة، وليست واسطة حياة. ونفس الكلام ينطبق على المعمودية. نحن نعتمد للمسيح، وليس لدينا تعبير عربي يقابل εις أي Into (رو ٦: ٣) أو "لاسم المسيح" (١كو ١: ١٣). وفي المعمودية بشكل خاص، نحن لا نأخذ واسطة أو وسيلة للمسيح، بل هو نفسه يجعلنا نُصلب ونموت ونُدفن معه، لكي نقوم بحياة جديدة. هذه حياة مشركة بين المسيح والمؤمنين، تبدأ في المعمودية، تجعل الذي ينال المعمودية "يلبس المسيح" (غلا ٣: ٢٨). وهنا نرى بشكل واضح ما تفعله المعمودية:

١– بطلان جسد الخطية وصلب الإنسان العتيق (رو ٦: ٥).

٢– نقوم مع المسيح بمجد الآب وللحياة الجديدة جداً (رو ٦: ٣).

٣– غفران جميع الخطايا (كولوسي ٢: ١٣).

٤– الامتلاء من المسيح (كولوسي ٢: ١٠).

٥– محا المسيح فرائض الناموس القديم (كولوسي ٢: ١٤ – ١٦).

وماذا تقول الليتورجية الخاصة بالمعمودية؟

الموت عائل الخطية

التعليم عن المعمودية هو عبارة الرسول التي تبدأ في نهاية الإصحاح الخامس "كما ملكت الخطية في الموت. هكذا تملك النعمة بالبر للحياة الأبدية بيسوع المسيح. فماذا نقول. أنبقى في الخطية لكي تكثر النعمة. حاشا. نحن الذين متنا عن الخطية كيف نعيش بعد فيها أم تجهلون أننا كل من اعتمد ليسوع اعتمدنا لموته" (رو ٥: ٢١ - ٦: ٣). وإيقاع أنشودة الخلاص هو:

١- دخلت الخطية إلى العالم بإنسانٍ واحدٍ، ومع الخطية دخل الموت (رو ٥: ١٢).

هذه حقيقة هامة جداً، لأن دخول الخطية يعني دخول الموت، ودخول الموت يقول عنه الرسول "اجتاز الموت إلى جميع الناس" (رو ٥: ١٢).

٢- دخل الموت إلى العالم بآدم، وبالموت الآدمي جاءت باقي الخطايا: "اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع بالموت" (رو ٥: ١٢).

وهذه هي قراءة كل آباء الكنيسة الشرقية:

"إذ أخطأ الجميع به (الموت)" وليس بآدم حسب المراجعة الهامة لبطريرك القسطنطينية فوتيوس. وجاء الأب المؤرخ الكنسي مايندورف في بحث تاريخي هام ليقول لنا إن معنى كلمة εφω ليس هو كما ورد في الترجمات اللاتينية، بل كما ورد في قراءات كل آباء الكنيسة الشرقية (ما عدا العلامة أوريجينوس الذي اعتقد بالسقوط في العالم الروحي حسب مذهب أفلاطون) "أخطأ الكل فيه أو به أي **بالموت**"، وليس في **آدم** حسب شرح القديس أوغسطينوس. وقراءة آباء الكنيسة الشرقية ذات دلالة، لأنها في حقيقة الأمر تعبِّر عن التعليم الرسولي الدقيق، والذي يؤكده الرسول بولس نفسه، عندما يشرح العلاقة بين الخطية والموت على هذا النحو:

١- بالخطية الموت (رو ٥: ١٢).

٢- ملك الموت حتى على الذين لم يكن لهم شريعة موسى والذين لم يشتركوا في خطية آدم أو الذين لم يخطئوا على شبه تعدي آدم (رو ٥: ١٤).

٣- بخطية واحد مات الكثيرون (رو ٥: ١٥).

٤- ملك الموت بالواحد (آدم) (رو ٥: ١٧).

٥- بخطية واحدة صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة (رو ٥: ١٨) (ليس حكماً إلهياً بأن الكل خطاة، بل لأن الكل تحت سلطان الموت، ويؤكده ذلك الرسول نفسه بقوله للدينونة) وهنا نرى التفسير الشرقي الأرثوذكسي.

٦- "كما بمعصية الإنسان الواحد، جعل الكثيرون خطاة أي بالموت أخطئوا، لأن الرسول يقول بعدها مباشرة هكذا أيضاً بطاعة الواحد سيجعل الكثيرون أبراراً، أي بالقيامة لأن الرسول قبلها يقول عن قيامة المسيح "هكذا ببر واحد صارت الهبة إلى جميع الناس لتبرير الحياة" (رو ٥: ١٨).

٧- ملكت الخطية في الموت (رو ٥: ٢١). وهكذا إذ أباد الرب يسوع عائل الخطية أي الموت، حسب اعتراف الكنيسة الجامعة "بالموت داس الموت" أباد الخطية وجعلها تفقد حصنها المنيع".

البرهان الأكيد من خلال مقارنة الخطية – الموت

القيامة والنعمة، آدم الأول، وآدم الثاني

رو ٥: ١٢ – ٦: ٢٣

الخطية – الموت وآدم الأول	الموت والقيامة – آدم الثاني
* بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت. ملك الموت * بخطية واحدة مات الكثيرون * ملك الموت بالواحد	* نعم الله والعطية بالنعمة التي بالإنسان الواحد قد ازدادت للكثيرين. * الذين ينالون فيض النعمة وعطية البر سيملكون في الحياة بالواحد يسوع المسيح

لا يقارن الرسول الخطية بالقيامة، لأن هذه المقارنة لا تظهر في النص، بل يقارن الموت بالقيامة، لأن ما يقال عن الخطية يقال عن الموت نظراً للرابطة العضوية التي تجعل أيهما يحل محل الآخر، ولكن العبرة دائماً بالنتيجة:

ملك الموت بواسطة الخطية	ملكت النعمة بواسطة القيامة
ملكت الخطية في الموت	تملك النعمة بالبر للحياة الأبدية بيسوع المسيح ربنا

ولكي نتأكد من هذه الحقيقة يجب علينا أن نكمل برهان الرسول نفسه في الإصحاح السادس ولا نقف عند نهاية الإصحاح الخامس. وهنا يقارن الرسول بين موت المسيح وقيامته وما يحدث في المعمودية للمؤمنين.

موت المسيح وقيامته	موت المؤمن وقيامته في المعمودية
المسيح مات ودفن وقام	اعتمدنا لموته – دفنا معه بالمعمودية
قام المسيح بمجد الآب	نصير نحن أيضاً أحياء بقيامته
المسيح صلب	الإنسان العتيق قد صلب
مات المسيح على الصليب	أبطل صلب الإنسان العتيق جسد الخطية

وعلى الرغم من أن الخطية تظهر في هذه المقارنة بشكل أوضح من (رو ٥) إلاَّ أن جوهر برهان الرسول تؤكده العبارات التالية التي تدور حول صلب جسد الخطية، أي الجسد الذي يجد حياته في الخطية هرباً من الموت، أو النظام الدفاعي الذي يجعل الدفاع عن الحياة هو في حقيقة الأمر ليس من أجل الحياة، بل من أجل مقاومة الموت، وهذا يختلف اختلافاً كبيراً عن الحياة من أجل الحياة، لأن الحياة هرباً من الموت، هي محاولة الحياة ولو على حساب الآخرين، بينما الحياة من أجل الحياة، هي تشبُّه بالله. ويقول الرسول عن موت المسيح: "المسيح بعد أن أقيم من الأموات لا يموت ولا يسود عليه الموت بعد" (رو ٦: ٩) والسبب هو:"الموت الذي ماته قد ماته للخطية مرة واحدة" (رو ٦: ١٠) لأن الموت كان موتاً كاملاً للحياة التي تهرب من الموت حسب قول الرب نفسه وهو يدعونا إلى التلمذة للحياة، أي له هو شخصياً: "إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه، ويحمل صليبه كل يوم، ويتبعني، من أراد أن يخلص نفسه يهلكها، ومن يهلك نفسه من أجلي فهذا يخلصها (لوقا ٩: ٢٣ – ٢٥).

لم يحفظ المسيح حياته، بل قدَّمها، أهلكها، رفعها قرباناً، وسقط بذلك عائل الخطية أي الموت "لأن الموت الذي ماته قد ماته للخطية مرة واحدة" لأن دمار وإبادة عائل الخطية مرة واحدة هو المقصود من هذه الكلمات ولا عبرة بالمرة بما يقال من آراء أخرى[١] "الحياة التي يحياها فيحياها لله

"دفعت الخطية الأجرة أي الموت "أجرة الخطية هي موت" (٦: ٢٣). ولم يكن الله هو الذي دفع الأجرة، بل الخطية هي التي دفعت الأجرة، وكانت الموت. ولم يدفع المسيح شيئاً بالمرة لأحد وبشكل خاص للآب لأن الرسول يقول: هبة الله

والهبة ليست مثل الأجرة، والهبة هي هبة الثالوث، الآب والابن والروح القدس. وهنا بشكل خاص يستحيل علينا أن نرى كيف يمكن للرسول بولس أن يتفق مع أصحاب الرأي الذي يقول بأن المسيح دفع ثمن خطايانا للآب، لأن كلمات الرسول تناقض كل ما قيل: "أمَّا هبة الله، فهي حياة أبدية بالمسيح يسوع ربنا" (٦: ٢٣) والهبة هي الحياة الأبدية بالقيامة، وهي بالمسيح وفيه، وهي عطية مجانية وليست المقابل، لأنها من الآب بالابن حسب نص (رو ٦: ٢٣) وفي الروح القدس حسب نص (رو ٨: ١٢) "وإن كان روح الذي أقام يسوع من الأموات ساكناً فيكم، فالذي أقام المسيح من الأموات سيحيي أجسادكم المائتة أيضاً بروحه الساكن فيكم".

الموت عائل الخطية في الليتورجية الأرثوذكسية

عندما نشر الأب ألكسندر شميمن[٢] كتابه الأول "من أجل حياة العالم" في الطبعة الأولى عام ١٩٦٣م لم يكن يتوقع أن ينال الرواج الذي ناله. كان أول ضوء لفجر تجديد الحياة الليتورجية الأرثوذكسية والفكر اللاهوتي الأرثوذكسي. كان الكتاب ولا يزال هو أهم نقد أرثوذكسي لفكر وحضارة الغرب، وما عاش في داخل هذه الحضارة من طقوس وعقائد وقيم. ولو أننا نملك الحس الروحي الأرثوذكسي المرهف، لفرضنا هذا الكتاب على كل الخدام والخادمات، وحولناه إلى كتاب قبطي بوضع الشواهد والنصوص

(١) مثل دفع ثمن الخطية – إرضاء العدل الإلهي .. الخ كل هذه عبارات وأفكار لا وجود لها في الكتاب المقدس.
(٢) اعتمدنا على الترجمة العربية منشورات النور ١٩٩٤. تعريب الأب توما بيطار –كاهن عائلة الثالوث القدوس.

القبطية من الليتورجية القبطية التي تتفوق على الليتورجية البيزنطية في إعلان حقيقة مواجهة الموت.

وقبل أن ندخل في هذه النقطة بالذات يلزمنا أن نرى كيف يرى الأب شميمن محاولة الحضارات المتعاقبة الهروب من عائل الخطية أي الموت. يستعرض الأب الكسندر ثقافة إنكار الموت من العصر الحديث حتى أفلاطون. ثم يقف ليسأل عن الكلام المزدوج أو الخطاب الديني المزدوج الذي يمارسه الكاهن في الكنيسة!! على الكاهن اليوم كممثل – في كل ذلك – للكنيسة جمعاء أن يستعمل لغتين وأن يزاوج بين موقفين. لكنه إذا ما كان صادقاً مع نفسه فيشعر، لا محالة بأن هناك "حلقة مفقودة" في كلا الموقفين، وإنَّ هذه الحلقة المفقودة هي في الواقع العنصر المسيحي بالذات. من التزوير للرسالة المسيحية أن تقدَّم المسيحية ويكرز بها كتأكيد للحياة دون إرجاع هذا التأكيد إلى موت المسيح، ومن ثم إلى واقع الموت بالذات". ثم يمضي قائلاً إن هذا التزوير يقوم على محاولات "أن يغض الطرف عن إن الموت في نظر المسيحية، ليس النهاية وحسب، بل هو حقيقة هذا العالم بالذات". وهنا يبرز الخطأ في الخطاب الديني المسيحي أو الوعظ عندما نحاول "أن نعزّي الناس ونصالحهم مع الموت، من خلال جعل هذا العالم مشهداً خاوياً لعملية إعداد فردية للموت، فهذا تزييف للمسيحية. المسيحية هي إعلان عن أن المسيح مات من أجل حياة العالم، لا من أجل راحة أبدية من العالم. وتبلغ المأساة الذروة، حينما نحاول أن نعيد للإنسان روح الحضارات القديمة التي حاولت أن تجعل الموت وجهاً من نظام الطبيعة. وينتهي الأب شميمن إلى ثلاث قضايا مترابطة، تدخل في نظام اللاهوت الطبيعي Natural Theology أي نظام التدين، الذي لا علاقة له بالمسيحية هذه القضايا هي:

١- عقيدة خلود النفس – إذا مات إنسانٌ بقى جزء منه على الأقل قيد الحياة.

٢- الموت كانعتاق وحرية من الألم والوجع.

٣- الموت كعقاب.

وحسب كلمات الأب شميمن: "ولا عقيدة الموت كعقاب هي في الحقيقة عقائد مسيحية" (راجع ١٣٨). ولكي يتأكد القارئ أن هذه ليست أفكار الأب شميمن

الخاصة، انقل هنا من المائة مقالة للقديس غريغوريوس بالاماس أحد أعمدة اللاهوت البيزنطي، الذي بعد أن أكد وحدة النفس والجسد، يقول في الفصل ٣٩:

"الطبيعة العاقلة والذكية للنفس، تملك العقل، والعقل يملك كلمةً وروحاً يعطي الحياة لما يبدعه العقل. هذه النفس وحدها هي التي خُلِقَت لتكون على صورة الله ... وعندما سقط الأبوين لم تُباد فينا صورة الله رغم سقوطهما بالأكل من الشجرة، وإنما ماتت النفس الإنسانية مثل موت الجسد، لأن النفس انفصلت عن الله، ولأننا رفضنا التشبه بما هو إلهي. وهكذا إذا رفضت النفس الاتصال والتعلق بالأمور السفلية، والتصقت بالمحبة بمن هو أعظم وأطاعت الخالق بعمل الفضائل، تنال الاستنارة ...، وتنال الحياة الحقيقية الأبدية. وبواسطة الحياة الأبدية التي أخذتها ينال الجسد الحياة الخالدة، لأن الجسد متحد بالنفس، وفي الوقت المعين يقوم من الأموات ويشترك في الحياة الأبدية المجيدة. ولكن إذا لم ترفض النفس الخضوع للأشياء السفلية، وأخضعت صورة الله فيها لما هو قبيح ومشين، تتغرب عن الحياة المباركة الحقيقية أي حياة الله" (ص ١٢٦ – ١٢٧).

وبعد ذلك يقول بالاماس إن الشيطان كان أقل شأنا من الإنسان، ولكن الله تركه، لأن الشيطان ترك الله.

"وإذا كان الله الصلاح الحقيقي، والحي، واهب الحياة لكل كائن حي، فإن الشيطان العدو هو الذي يعطي الموت. وإذا كان الله هو الذي يعطي الصلاح، لأن الصلاح هو جوهره، وهذا الجوهر (من طبيعة بسيطة غير مركبة من خير وشر) لا تقبل أن تعطي ما هو عكس جوهرها أي الشر، فإن الأشرار أو الذين فيهم بعض الشر، لا يمكنهم الاقتراب منه ..".

ثم يقول بعد ذلك..

"لم تكن عقوبة الموت، أي موت النفس بسبب السقوط، وهي

العقوبة التي شملت الكل، هي حسب عدل الله؛ لأن الله لم يترك إلاَّ الذين تركوه بإرادتهم، ولم يُرغَم الله على أن يتخلى عن أحد إذ لا يمكن إرغام الله، بل ترك الذين شاءوا أن يتركوه. ومع أن حكم الموت أُعلن بواسطة الله قبل سقوط الإنسان، وسبق الله وأعلنه بسبب محبته للبشر (تك ٢: ٧) إلاَّ أنَّ الله أجَّل سريان عقوبة الموت على الجسد، بسبب حكمته الفائقة ومحبته التي لا تحد، لأنه لم يقل لآدم يوم تأكل سوف تعود إلى العدم الذي أخذت منه، بل سوف تعود إلى التراب (تك ٣: ١٩) والذين يسمعون بحكمة هذه الكلمات يدركون من تأمل معانيها إنَّ الله لم يخلق الموت، لا موت الجسد ولا موت النفس (حك ١: ١٣) لأنه عندما أعطى الوصية في البدء لم يقل أنا سوف أميتك يوم تأكل، بل قال ستموت يوم تأكل ولم يقل "الآن عد إلى التراب" بل "ستعود إلى التراب"[١].

إنَّ ما سجله القديس غريغوريوس، هو ما سجله القديس أثناسيوس الرسولي، فهو تسليم الآباء.

إنَّ النفس ليست خالدة أو عديمة الموت بالطبيعة، وإنما هي خالدة وعديمة الموت بسبب نعمة الله، ولذلك يمكن أن تحيا في الموت إلى الأبد، حسب حكم الله. وهكذا جاء المسيح وأباد ذلك الحكم وبين أن الموت القابع في داخل النفس يحتاج إلى تجديد وإصلاح وإلى هبة الحياة. وقد تجاوزنا شريعة الإنجيل عندما حاولنا أن نترك موت النفس. يقول غريغوريوس بالاماس:

"إن بولس العظيم علمنا أن النفس العاقلة يمكن أن تبقى حية ولكن في طريق الموت، رغم أنها تملك صفة الحياة، لأنه كتب أمَّا الأرملة المتنعمة فقد ماتت وهي حية (١ تيمو ٥: ٦) ولا يوجد أسوأ من هذا ... لأنها تموت رغم أنها حية، أي يبقى جوهرها حياً خالداً

---

(١) نشر النص اليوناني مع ترجمة إنجليزية العهد البابوي للدراسات العصر الوسيط. قام بالترجمة الأب الدومنيكاني Robert Sinkewicz ١٩٨٨ - ص ١٤٤ وما بعدها.

ولكن لديها القدرة على الموت، وهو أسوأ ما يمكن أن يحدث ... لأن الأرملة المتنعمة قد فقدت عريسها الجسداني، وصارت مثل النفس التي فقدت العريس السمائي وانزلقت في كل خطايا التنعم وتركت طريق التوبة، فصارت بذلك تحت سلطان أهواء إرضاء الذات بدون العريس ... وقال الرسول في موضع آخر "ونحن الأموات بالذنوب أحيانا معه في المسيح (أف ٢: ٥)" [١].

وبعد ذلك يعرض الأب شميمن كيف تواجه المسيحية الموت بالصليب، لا أن تنكره، ولا تقلل من شأنه، بل تؤكد أن المسيح انتصر عليه وأباده بالموت، ولذلك يكتب "**ليست المسيحية مصالحة مع الموت، المسيحية كشفٌ للموت، وهي تكشف الموت لأنها كشفٌ للحياة. المسيح هو هذه الحياة**" (المرجع السابق ص ١٤٢).

وهم القرن العشرين:

لا يمكن أن نميز في هذا القرن أو في غيره انتصار الله، أو انتصار الإنسان على الشر والخطية. التاريخ، الجرائد، كل ما نعرفه عن الإنسان يؤكد عكس هذا الوهم، لازال الشر في العالم، ولذلك السبب لا تقُل الليتورجية إنَّ المسيح أباد الخطية، ولكنه غلب الموت بالصليب وبالقيامة. وقضى على عائل الخطية. فنحن لا نزال نعترف بخطايانا كلما تناولنا، وكلما صلينا، ولا تزال أقصر صلاة في الليتورجية "يا رب أرحم" ترافق كل صلواتنا ... أمَّا الموت فهذا موضوع آخر. غلب الربُ الموتَ، وهو يدعونا إلى أن نسير في طريق غلبة الموت لكي نغلب وننتزع جذور الشر التي غرسها الموت. وهذه هي بعض جذور الشر التي غرسها الموت.

* كثرة المقتنيات مثل الغني الغبي الذي كان يظن أن حياته في ممتلكاته "هكذا الذي يكنز لنفسه وهو ليس غنياً لله" (لو ١٢: ٢١).

* ولذلك حذَّر المسيح من الاهتمام بما نأكل وبما نلبس، لأن خلف هذا الاهتمام محاولات الإنسان اليائسة بالاحتفاظ بالحياة.

---

(١) المرجع السابق فصل ٤٥ (ص ١٣٤ - ١٣٥).

* وهذا هو القانون المعكوس لحفظ الحياة. ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله – قانون الموت – وأهلك نفسه (بما يقتني) أي وجد الداء في الدواء (لو ٩: ٢٥).
* الفُجر، كلمات النقد، الخوف، الكذب ... الخ. كل هذه نابعة من القلب ... تغزها مخاوف الموت فينا.

الجناز العام في يوم أحد الشعانين

نحن ندخل أعماق الموت بعد قداس أحد الشعانين في الجناز العام الذي تنفرد به الكنيسة القبطية. وهو ترتيب يجعل من كل علماني راهب. ويقول دلال أسبوع الآلام: "يجتمع الشعب المسيحي رجالاً ونساءً" .. لحضور التجنيز العمومي، والغرض من تجنيزهم خشية أن يموت أحدٌ في جمعة البصخة فإنه لا يجب رفع بخور في هذا الأسبوع، فهذا التجنيز يغني عن تجنيز الأربعة أيام التي لا يجب رفع بخور فيها ..."

وهكذا نحن نلمس الموت في كل عام ... نحضر صلاة موتنا ورقادنا إلى أن نكمل حقاً.

الفصل التاسع

تمييز دور الموت

لم تعرف الكنيسة القبطية عبر تاريخها الطويل هذه الفكرة الواردة والوافدة إلينا من خلال كتب اللاهوت البروتستانتي، والتي تظهر في بعض كتابات أقباط أرثوذكس، هذه الفكرة البروتستانتية هي:

أولاً: الآب عاقب الابن على الصليب.

ثانياً: الابن دفع ثمن خطايانا دمه.

ثالثاً: عامل الآبُ الابنَ الوحيد كخاطئ، وهو معلق على الصليب.

رابعاً: صار الابن (دون أن يذكر هؤلاء كيف) القاتل والمجدِّف والزاني، وهو في البستان، وهو معلق على الصليب.

خامساً: ينفرد أحد الكتاب الأقباط الأرثوذكس بالرأي بأن الآب أشعل نار العدل الإلهي في الابن وحرقه تماماً، حتى تحول الابن إلى رماد، وهي فكرته الخاصة به وحده[١].

القاعدة الأولى للتمييز: لا يجب الاجتهاد بالرأي في حالة غياب نص صريح واضح في الكتاب المقدس.

لا يوجد لدينا نص واحد يقول إن الابن على الصليب صار خاطئاً أو عامله الآب كخاطئ أو عوقب .. الخ. وإذا قال الرسول بولس إن الابن صار خطية (٢كو ٥: ٢١)، فهذا يختلف تماماً عن اعتبار الابن "خاطئ" وسوف نقدم شرح آباء الكنيسة

(١) قداسة البابا شنودة الثالث: مجموعة تأملات في أسبوع الآلام – خمسة كتب – الطبعة التاسعة، ١٩٩٤.

الجامعة لنص (٢ كو ٥: ٢١) ومن الكتاب المقدس بعهديه، وبالتالي لا يجوز بالمرة لنا أن نقدم ألفاظاً حديثةً، لأنها تفتح باب (البدع). والابتداع يبدأ بالألفاظ وينتهي بإنكار الإيمان. ونظراً لعدم وجود هذا التعبير في الأسفار المقدسة، وجب علينا الإقلاع عن هذه الكلمات والمفاهيم نظراً لما تحتويه من خطورة لا تظهر بوضوح لقلب القارئ غير المدرب في طريق الرب.

الفرق بين كلمة "خطية"، وكلمة "خاطئ"

يوجد فرق بين "صار خطية" (٢ كو ٥: ٢١) وصار خاطئاً؛ لأن التعبير الأول حسب شرح الآباء وعلى رأسهم القديس كيرلس السكندري يعني "صار ذبيحة خطية"، وهو تعبير خاص بالذبح والصلب، ويشرح إبادة الرب للخطية بواسطة الصليب، أمَّا التعبير الثاني، فهو يشرح إبادة الخطية للرب نفسه لأنه عومل كخاطئ. واحترق في نار العدل الإلهي، وتحول إلى رماد حسب تعبير أحد الكتاب الأقباط الأرثوذكس. وهذه هي خطورة الادعاء بأن المسيح عندما حمل خطايانا على الخشبة وهو على الصليب صار خاطئاً، أو حسب كلمات مارتن لوثر زعيم حركة الإصلاح: مجدفاً وقاتلاً .. الخ.

١- الخطية لا يمكن أن تحدث بدون الإرادة، وإذا عبرت في العقل كفكرة فهي ليست خطية، ولم يكن لدى الرب فرصة لكي يخطئ، ويسقط في الخطايا السالفة التي تذكرها كتب حركة الإصلاح.

٢- الخطية ليست شيئاً يمكن أن ينتقل من إنسان إلى آخر، أو من إنسان إلى حيوان، فهي بلا طبيعة جسدانية مادية، رغم أنها تحدث على المستوى المادي مثل القتل الذي يتكون في القلب والنية ثم يظهر فعلاً، أي يسفك فيه القاتل دم الضحية. وإذا كان القانون يعاقب القاتل بالقتل حسب شريعة موسى، فإن موت القاتل، يؤدي إلى موت الخطية نفسها، ولا تنتقل الخطية إلى آخر. ولو تصورنا أن المسيح صار خاطئاً بالفكر دون الإرادة، ودون تنفيذ الخطية، يصبح هذا مجرد تصور لا حتمية حقيقية له، ولا يمكن أن يشرح هذا حزن الرب ودموعه في بستان جثيماني؛ لأن الحزن والدموع والصراخ الشديد حسب تعبير رسالة العبرانيين هو خاص بالموت حسب النص، وليس حسب

خيال الإنسان: "الذي في أيام جسده إذ قدم بصراخ شديد ودموع وطلبات وتضرعات للقادر أن يخلصه من الموت وسُمِعَ له من أجل تقواه" (عب ٥: ٧). فالغريب على طبيعة الرب هو الموت، موت الذي يقول: "أنا الحياة"، والرب الذي يهب الحياة لكل الكائنات يحيا مع البشر منذ سقوط آدم ويرى خطاياهم، ويمدهم بالحياة والوجود والحركة (أع ١٧: ٢٨)، أي يعطي لهم نعمة الوجود والفكر التي تنحرف نحو الخطية، ومع ذلك فهو لا يسحب هذه النعمة، أي نعمة الوجود، بل يراقب ويرى ويمتحن كل خفايا القلوب ويعرف خطايانا قبل أن توجد؛ لأن المأساة ليست في الخطية، وإنما هي في نتيجة الخطية أي الموت. ولذلك لا تقول الكنيسة إن الرب أباد الخطية، بل أباد الموت: "**بالموت داس الموت**".

وهنا يظهر الفرق بين تعليم الشرق الأرثوذكسي وتعليم الغرب البروتستانتي. فقد مات الرب وقام، وبموته أباد نتائج الخطية، ولذلك السبب وحده يقول الرسول بولس عن ربنا يسوع المسيح: "رئيس كهنة مثل هذا قدوس بلا شر ولا دنس قد انفصل عن الخطاة وصار أعلى من السموات" (عب ٨: ٢٦). وبموت المسيح كما يقول الرسول لم يقدم "ذبائح أولاً عن خطايا نفسه"، ثم "عن خطايا الشعب"؛ لأنه فعل هذا مرة واحدة إذ قدَّم نفسه" (عب ٧: ٢٧). ولم يقدِّم المسيح ذبيحة عن خطاياه؛ لأنه بلا خطية وقدوس، وإنما قدَّم عن خطايا الشعب "بدم نفسه" (عب ٩: ١٢). قدَّم دمه مرةً واحدةً، لا لكي يُذبح كخاطئ، بل كما يقول الرسول: "يطهِّر ضمائركم من أعمال ميتة لتخدموا الله الحي" (عب ٩: ١٤)، فقد طهَّرنا دم المسيح الذي يُقدَّم ترياقاً ودواءً ضد الخطية والموت حسب قول الرسول: "ودم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية" (١ يوحنا ٢: ٧).

وهكذا يظهر لنا بكل وضوح إن الدم يطهر الخاطئ لأنه سُفِك على الصليب، وأعطى لنا عهداً جديداً في الإفخارستيا "عهداً جديداً بدم الرب، وهو عهد حياة؛ لأن الدم حياةٌ، وليس موتاً، هو هبة تقدَّم لله في العهد القديم، وهو هبة ربنا يسوع المسيح لنا في العهد الجديد لكي ننال به الحياة حسب شهادة الليتورجيات.

القاعدة الثانية للتمييز: "مرةً واحدةً" تؤكد سيادة الحياة على الموت

ماذا يعني الرسول وماذا يقصد بتعبير "مرةً واحدة"؟

لاحظ أيها القارئ ما يرفضه الرسول:

١– إنَّ المسيح لا يقدِّم نفسه مراراً كثيرة كل سنة بدم آخر، أي بدم ذبيحة جديدة كما كان يفعل رئيس الكهنة (عب ٩: ٢٥)، فالدم واحد والذبيحة واحدة ورئيس الكهنة لا يموت، له قوة حياة لا تزول (عب ٧: ١٦)، أي لا تموت. ويؤكد هذا المعنى ختام الرسالة إلى العبرانيين حيث يقول الرسول: "وإله السلام الذي أقام من الأموات راعي الخراف العظيم ربنا يسوع المسيح بدم العهد الأبدي" (عب ١٣: ٢٠). والدم سُكب وسُفك مرةً واحدةً؛ لأنه حياة شخص واحد حي إلى الأبد، لا يموت وكما يقول الرسول: "لا يسود عليه الموت"؛ لأن الدمَ كحياة قدمت من أجل الجميع له قوة حياة القائم من بين الأموات. ويؤكد هذا، القديس غريغوريوس الثاؤلوغوس عندما يقول عن الدم الكريم "**دم القيامة**"، وهو ذات تعليم الرسالة إلى العبرانيين؛ لأنه الدم الذي قُدِّم بالروح القدس، الروح الأزلي (عب ٩: ١٣) والذي قال "دم العهد الأبدي" القائم على قيامة الحي إلى الأبد، الذي قال "لا تخف أنا هو الأول والآخر، والحي وكنت ميتاً، وها أنا حيٌ إلى أبد الآبدين" (رؤ ١: ١٧ – ١٨).

لقد مات الرب مرةً واحدة، لأن الموت قُهِر بالصليب وبالقيامة والموت مرة واحدة، وذلك يؤكد بطلان الموت وعجزه.

٢– ويقول الرسول بعد ذلك: "ولا يقدم نفسه مراراً كثيرة كما يدخل رئيس الكهنة إلى الأقداس بدمٍ آخر، فإذ ذاك كان يجب أن يتألم مراراً كثيرة منذ تأسيس العالم، ولكنه الآن قد أُظهِرَ مرةً عند انقضاء الدهر، يبطل الخطية بذبيحة نفسه" (عب ٩: ٢٥ – ٢٦). وإذا قال الرسول إن الرب "أبطل الخطية بذبيحة نفسه"، فإن المعنى الواضح هو to put away أو يرفع أو يحمل، وهو لا يعني بالمرة يحمل أي يضع، وإنما ينقل بعيداً، يرفع الخطية كحائل، لأن رفع الخطية كحائل يعني رفع حكم الخطية عنا، وهو حكم الموت. ويؤكد الرسول هذا المعنى في العبارة التالية: "هكذا المسيح بعد ما قُدِّم (صيغة المبني للمجهول) مرةً لكي يحمل خطايا كثيرين، سيظهر ثانية بلا خطية للخلاص للذين

ينتظرونه (عب ٩: ٢٨). وهنا كما في سائر رسائل بولس علينا أن نكون على حذرٍ؛ لأن المسيح لم يحمل الخطية كما يحمل الإنسان النقود أو المتاع؛ لأن الخطية كامنة في الفكر والإرادة. وحمل الخطية بالمعنى السائد في كتابات العصر الوسيط وحركة الإصلاح والتعليم السائد الآن في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، ومارتن لوثر .. إنما هو عودة صريحة لفكرة الغنوسية بأن للخطية وجوداً مادياً مثل وجود الأشجار والأحجار والمعادن، أي لها جوهر مادي يمكن أن يحمله إنسانٌ إلى إنسانٍ آخر، وخلف هذا كما يعرف تلاميذ التاريخ الكنسي وتاريخ عقائد المسيحية، تكمن فكرة الخالق الشرير الذي خلق العالم المادي الشرير والذي صنع كل الكائنات المادية وهي كلها شريرة بطبعها لأن الله خالق الشر.

٣- ونظرةٌ على كلمات الرسول بولس السابقة تؤكد لنا أن المسيح الذي سوف "يظهر ثانية بلا خطية"، أي لن يأتي لكي يكفِّر ويبيد الموت، بل لكي يخلص الذين رقدوا على رجاء. وإذا قال الرسول إنه قُدِّم بواسطة الآب، وليس إلى الآب لكي يرفع وينقل ويحمل خطايا كثيرين، أي لكي يبيد الموت لأنه إذا كان لن يقدم نفسه "مراراً كثيرة" فالواضح أنه قدم ذاته مرةً واحدةً لكي يبيد الموت، لأن الموت يمكن إبادته مرةً واحدةً بالقيامة، أمَّا الخطية فهي لا تزال تحدث حتى عند المؤمنين، ولا تزال باقية، ولا نزال نذكر في الصلاة الربانية كل يوم: "اغفر لنا ما علينا"؛ لأننا نسأل الغفران ونصلي من أجل الغفران، أمَّا القيامة فهي لا تظهر في صلواتنا إلاَّ في أوشية الراقدين ومن أجل تعزية الكنيسة والمتألمين بالحزن.

ونحن لا نصلي من أجل القيامة أي قيامتنا نحن؛ لأنها قد تمت في المسيح. وتحقيق هذه القيامة في اليوم الأخير هو ما نعترف به في قانون الإيمان المقدس. أمَّا مغفرة الخطايا فهي تتم كل يوم. ولذلك يقول الرسول نفسه: "أمَّا هذا (المسيح) فبعد أن قدَّم عن الخطايا ذبيحةً واحدةً جلس إلى الأبد عن يمين الله" (عب ١٠: ١٢)، وبقوله: "بقربان واحد أكمل القديسين إلى الأبد" (عب ١٠: ١٤)، أكد الرسول إنه قربان القيامة، قربان "المشيئة" الذي به قدَّم "يسوع المسيح جسده مرةً واحدةً" (عب ١٠: ١٠) وهو الذي أباد الموت، وقدَّس الإنسانية من نجاسة الموت ولعنته.

وحتى لا يبقى شكٌ في قلب القارئ، وحتى لا يعثر البسطاء الذين رغم إيمانهم

بالمسيح لا زالوا يخطئون، **لأن المسيح لكي يبيد الخطية وجب عليه أن يبيد حرية الاختيار، أي حرية الإرادة، ولكن إبادة حرية الاختيار هي إبادة لنعمة وعطية، والنعمة والعطية تحتاج إلى تجديد وقوة وليس إلى إبادة**، وهذا ما يؤكده الرسول بولس عندما يعلن بشارة الإنجيل في يوم قيامتنا نحن وليس قيامة المسيح التي تمت فعلاً: "أين شوكتك يا موت أين غلبتك يا هاوية؟ أمَّا شوكة الموت فهي الخطية وقوة الخطية هي الناموس (١كو ١٥: ٥٦).

فإذا كان الرب قد كسر شوكة الموت، فقد كسر الخطية، كسر عائل الخطية، وأباد نتائج الخطية وحطم قوة القبر، ولذلك عندما أباد الموت حقق أمرين:

أولاً: أبطل "حكم الناموس" الذي يقضي بموت الخطاة، أي أبطل ناموس الموت، وهو ما تقول عنه الليتورجية:

"أبطلت الخطية بالجسد".

"قتلت خطيتي بقبرك" (القداس الغريغوري).

"قتلت الخطية بالخشبة وأحييت الميت بموتك" (صلاة الساعة السادسة).

ويقول القديس أثناسيوس الرسولي:

"وإذا أخذ جسداً مماثلاً لأجسادنا، ولأن الكل كانوا تحت فساد الموت، قدم جسده للموت عن الكل، وقدَّمه للآب. وفعل هذا بمحبته للبشر، لكي يموت الكل فيه (رو ٦: ٨) ولكي يبيد ناموس الفساد الذي ساد على البشر، لأن قوته قد انتهت (توقفت) في جسد الرب، وصارت عاجزة (قوة الفساد) على أن تسود على البشر" (تجسد الكلمة النص اليوناني ص ١٥٢ فصل ٨: فقرة ٢٥ - ٣٠ الترجمة الإنجليزية ص ١٥٣).

ويقول القديس أثناسيوس الرسولي بعد ذلك في الفصل التاسع:

"ولذلك كتقدمة وقربان أو ذبيحة خالية من كل عيب قدَّم (استخدم نفس الفعل الخاص بتقديم الإفخارستيا) للموت الجسد الذي أخذه

لذاته، وفوراً أباد الموت من الذين هم نظرائه؛ لأنه قدم جسداً مماثلاً لأجسادهم" (المرجع السابق ص ١٥٤ - الترجمة الإنجليزية ص ١٥٥).

ثانياً: وهب الرب عدم الفساد بالقيامة، وبذلك أبطل شوكة الخطية بأمرين: أولاً: عطية الحياة الأبدية، ثانياً: عدم فساد الجسد، وبقاء الحياة الإنسانية حرة من الموت، وبذلك حرر الإنسان من الخوف الذي يجعله يدافع عن حياته مهما كانت نتائج الدفاع عن الحياة، والتي أحيانا تؤدي إلى قتل الآخرين.

يقول القديس أثناسيوس عن عدم الفساد وعطية القيامة:

"وهذا يجب أن يكون معروفاً، فالفساد الذي حدث لم يكن فساداً حدث من مؤثر خارجي يؤثر في الجسد، بل فسادٌ للجسد نفسه، وهكذا كان من الضروري عوضاً عن الفساد أن تُعطى الحياة للجسد عوضاً عن الموت، لكي يصبح حياً وتبقى الحياة فيه. ولو كان الموت مؤثراً يؤثر على الجسد من الخارج، كانت الحياة ستكون مثل الموت مؤثراً يؤثر على الجسد من الخارج، ولكن وحيث أن الموت امتزاج بالجسد وساد عليه، كما لو كان قد اتحد به، كان من الضروري أن تمتزج الحياة بالجسد لكي يلبس الحياة ويخلع الفساد. ولذلك لو كان الكلمة خارج الجسد وليس في الجسد، فإن الموت لن يكون قد أبيد؛ لأنه بكل يقين قد أبيد الموت في الجسد؛ لأن الموت ليس له قوة على الحياة ατε δη ύη ιοχυονος τόυ θανατον κατα της ξώης " (تجسد الكلمة ف ٤٤: ص ٢٤٤ – ٢٤٦).

انتصار الرب على الموت في تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس

علينا أن نميز ثلاثة مبادئ أساسية عندما نقرأ كتابات آباء الإسكندرية:

أولاً: إنَّ الابن الكلمة ربنا يسوع المسيح هو "الحياة".

ثانياً: إنَّ الابن الكلمة، أي Logos هو رب وسيد الخليقة.

ثالثاً: إنَّ الابن الكلمة جاء لكي يبيد الموت ويحرر ويجدد الإنسانية ويرد إلى الإنسان –

من خلال الشركة في حياته الإلهية المتجسدة – "صورة الله" التي تشوَّهت بالخطية.

وهكذا يدور موضوع الخلاص حول هذه الدائرة الكبرى: الحياة – الكلمة الخالق – تجديد ورد ما ضاع من الإنسان.

وما ضاع من الإنسان هو:

١– الصورة الإلهية.

٢– الشركة في الطبيعة الإلهية، لأن الإنسان فقد هذه الشركة.

٣– الحياة التي سقطت تحت سلطان الموت.

٤– حياة القداسة، إذ تحولت طبيعة الإنسان للشر والخطية.

موت الرب على الصليب كما شرحه القديس أثناسيوس

يؤكد القديس أثناسيوس إن المسيح هو نائب البشرية عند الآب:

"وحيث انه هو كلمة الآب ويفوق الكل، فكان هو وحده الذي يليق بطبيعته أن يجدد خلقة كل شيء وان يتحمل الآلام عوضاً عن الجميع وان يكون نائباً عن الجميع لدى الآب" (٧: ٥ – ص ٣٥).

وقد شرح القديس أثناسيوس معنى كلمة نائب أو شفيع (راجع حاشية رقم ١ على ص ٣٥) فأكَّد أن هذه الشفاعة أو الموت النيابي هو موت يوفي "مطلب الآب العادل، المطالب به الجميع" (٧: ٥ – ص ٣٥) فما هو مطلب الآب العادل؟ أجاب القديس أثناسيوس على هذه النقطة بالذات في الفقرة التي أخذناها من أقواله:

"يجدد خلقة كل شيء" (٧: ٥ ص ٣٥).

ويتأمل القديس أثناسيوس حقيقة التجسد ويعبِّر عنها بدقة "**أخذ جسداً من أجسادنا، جسداً مماثل لطبيعتها**" (٨: ٤ – ص ٣٧) ويقول بنفس الدقة: "**جسداً قابلاً للموت**" (١٣: ٩ ص ٥١) فالجسد الإنساني الذي أخذه الرب من القديسة مريم لم يكن جسداً غريباً على الطبيعة الإنسانية، بل كما يقول أثناسيوس جسداً قابلاً للموت. **مماثلاً** لأجسادنا، بل "**فقد أحيا المسيح الجسد وطهره، الذي كان في حد ذاته قابلاً للفناء**" (١٧: ٧ – ص ٦٢).

فالنائب أو الشفيع غير مائت، بل كما يقول أثناسيوس: "**مستحيل أن يموت**" (٢٠: ٦ ص ٧٠). ولكن المخلص: "**أخذ لنفسه جسداً قابلاً للموت**" (٢٠: ٦ ص ٧٠). وقابلية الجسد للموت هي التي تجعل المسيح قادراً على أن يكون الشفيع والنائب "**أخذ لنفسه جسداً قابلاً للموت، حتى يمكن أن يقدمه كجسده (الخاص به) نيابة عن الجميع**" (٢٠: ٦ ص ٧٠).

إذن شفاعة المسيح ووساطته لا تخرج عن دائرة انتماء المسيح "**للجميع**"، أي أن تكون له ذات الطبيعة القابلة للموت. هذا المبدأ لا يعرفه اللاهوت الغربي في العصر الوسيط، ولا في عصر حركة الإصلاح في القرن السادس عشر، فالوسيط في الغرب هو نائب يتقبل العقوبة كبديل عن الإنسانية، أمَّا في الشرق، فالوسيط هو نائب وشفيع يشترك مع الإنسانية في ذات الطبيعة القابلة للموت.

ويؤكد القديس أثناسيوس في نفس الفصل:

> "وما دام الجسد قد اشترك في ذات الطبيعة مع الجميع لأنه كان جسداً بشرياً، وان كان قد أُخذ من عذراء فقط بمعجزة فريدة، فكان لابد وان يموت أيضاً كسائر البشر نظرائه، لأنه كان جسداً قابلاً للموت، ولكنه بفضل اتحاده بالكلمة لم يعد خاضعاً للفساد بمقتضى طبيعته، بل خرج عن دائرة الفساد بسبب الكلمة الذي أتى ليحل فيه" (٢٠: ٤ ص ٦٩ - ٧٠).

ومن المعروف أن القديس أثناسيوس هو أكثر الآباء وضوحاً، إذ لا يكتب بالمرة شيئاً غامضاً، بل يكرر الكلام لكي يؤكد المعاني التي يريد أن تصل القارئ ويعتذر دائماً عن التكرار. فبعد أن يؤكد انتماء الوسيط لنظرائه من البشر، لا ينسى القديس أثناسيوس قاعدة الوساطة أو المبدأ الثاني الفعال الذي على أساسه قامت الوساطة، وهو اتحاد اللاهوت بالناسوت، أي لاهوت الابن الكلمة الذي جعل الجسد القابل للموت غير خاضع لسلطان الموت. وحسب عبارات القديس أثناسيوس عن ناسوت الرب:

> "ولكنه بفضل اتحاده بالكلمة لم يعد خاضعاً للفساد بمقتضى طبيعته، بل خرج عن دائرة الفساد بسبب الكلمة الذي أتى ليحل فيه" (٢٠: ٤ - ٧٠).

فالوسيط شريكٌ لنا في قابلية الجسد للموت، ولكنه ليس مثلنا؛ لأنه الكلمة. وهكذا يرتب القديس أثناسيوس على هذا الأساس، أي على أساس شركتنا في ذات الطبيعة، نحن والمسيح لنا طبيعة واحدة إنسانية قابلة للموت، ولكن المسيح يختلف عنا لأنه الكلمة الذي جاء لكي يقابل موت الإنسان بقوة الحياة أي حياة الكلمة ... وسوف نعود لموضوع الحياة الإلهية للكلمة في الفصل التالي، ولكن يكفي هنا أن نرى بكل وضوح ماذا حدث عندما أخذ الرب ذات الطبيعة القابلة للموت واتحد بها:

> "وهكذا تم عملان عجيبان في الحال أولهما إتمام موت الجميع في جسد الرب والثاني القضاء على الموت والفساد كلية بفضل اتحاد الكلمة بالجسد. لأنه كان لابد من الموت، وكان لابد أن يتم الموت نيابة عن الجميع لكي يوفي الدين المستحق (الواجب) على الجميع"
>
> (٢٠: ٥ – ص ٧٠).

وكلتا النقطتان ذات دلالة هامة في الفكر اللاهوتي الشرقي الأرثوذكسي. فالنقطة الأولى، وهي إتمام موت الجميع في جسد الرب "القابل للموت" هي نقطة سهلة؛ لأننا نشترك في ذات الطبيعة الإنسانية القابلة للموت، ولأننا نموت .. وقد مات المسيح وبموته تم موته النيابي عن الجميع.

أمَّا النقطة الثانية فهي ذات دلالة هامة جداً في اللاهوت الشرقي، لأن الوسيط أباد الموت بالموت أو حسب نشيد القيامة "**بالموت داس الموت**"، وهو النشيد الذي سمعه أثناسيوس الطفل الذي تربى في الكنيسة التي عرفها من خلال اشتراكه مع أبيه ككاهن[١].

وهكذا يشرح أثناسيوس بشكل واضح إبادة الموت:

> "وحتى إذا ما تألم نيابة عن الجميع باتحاده بالجسد يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت، أي إبليس ... (عب ٢: ١٤ – ١٥)"
>
> (٢٠: ٦ ص ٧٠).

---

(١) راجع المخطوطة التي عثر عليها الأب متى المسكين في حصن دير القديس الأنبا مقار والتي تؤكد أن والد القديس أثناسيوس كان قساً.

لقد أباد الرب الموت في جسده. وهذه عبارة متكررة في كتاب تجسد الكلمة وهي أحد المكونات الأساسية التي تميز بها اللاهوت الشرقي:

إبادة الموت بواسطة الوسيط: الفرق بين الشرق والغرب

يقول أثناسيوس في الفصل التالي:

"إذ مات عنا مخلص الجميع، فإننا نحن الذين بالمسيح لا نموت بعد،
كما كانوا قديماً حسب وعيد الناموس لأن هذا الحكم قد بطل"
(٢١: ١ ص ٧١).

أبطل الرب حكم الموت بالموت، وهو ذات الحكم الذي نطق به الكلمة نفسه "موتاً تموت". لم يصدر هذا الحكم من الآب وحده، بل هو حكم الثالوث، وهذا هو جوهر لاهوت الشرق، أمَّا في العصر الوسيط حيث انعدمت تماماً عقيدة شركة الجوهر الواحد للثالوث، وابرز الغرب إلوهية الآب، وترك مساواة الآب للابن في الجوهر، ولم يُطبَّق مبدأ وحدة الجوهر على التعليم الخاص بموت المسيح الذي عُرِفَ في العصر الوسيط تحت باب مستقل عن باب الثالوث باسم "عقيدة الفداء"، وهو ترتيب يعود أساساً إلى القديس أنسلم رئيس أساقفة كانتربري، ثم استقر بعد ذلك في اللاهوت النظامي الخاص بالعصر الوسيط حسب التقسيم الذي أسسه ألبرت الكبير ومن بعده أبيلارد. وحسب هذا التقسيم يبدأ اللاهوت النظامي بإثبات وجود الله، ثم الكلام عن صفات الله ووحدانيته وأقانيم الثالوث. وينتقل بعد ذلك حسب التقسيم نفسه إلى المسيح والإنسان حيث يعالج قضية الخلق والسقوط والفداء، وبعد ذلك ينتقل إلى الكنيسة والأسرار الكنسية. وجاء القديس توما الإكويني في الخلاصة اللاهوتية (١٢ مجلد) وتوسع في شرح العقائد كلها على أساس نفس التقسيم.

فالتقسيم نفسه هو المسئول الأول عن فصل عقيدة الثالوث عن موضوع الفداء ... وحصر موضوع الفداء في عمل المسيح وشخصه، وفصل عمل المسيح عن عمل الروح القدس .. ثم جاء التقسيم بانفصال تام لموضوع الأسرار الكنسية عن موضوع الفداء. وهكذا عندما جاءت حركة الإصلاح في القرن السادس عشر، كانت الأسرار

الكنسية تُدرس بشكل مستقل تماماً عن الفداء والصليب، ووجد لوثر بعض عبارات في مؤلفات القديس أوغسطينوس عن التبرير بالإيمان، فنقل موضوع المغفرة وحصره في الباب الخاص بالفداء وأهمل الأسرار الكنسية؛ لأنها موضوع مستقل تماماً عن الفداء .. وعاد إليه بعد ذلك عندما هاجم زوينجلي الأسرار بشكل عام والإفخارستيا بشكل خاص .. وهكذا حصر لاهوت الغرب عمل الوسيط وشفاعته في الصليب فقط .. وحتى كهنوت الرب لم يُدرَس بعناية كافية تجعله القاعدة الأساسية ومصدر ممارسة الأسرار في الكنيسة .. وحل محله كهنوت المؤمنين، لأن كهنوت المسيح انتهى بموته وقيامته وجلوسه عن يمين الآب شفيعاً، فقدم الثمن والترضية لله الآب، ولم يعد له صلة بما يحدث بعد ذلك سوى التوسل بالطلبة لله الآب، مما فصل كهنوت المؤمنين عن كهنوت المسيح، وعندما انتهى عمل المسيح ككاهن بذبيحة وقربان الصليب، تعذَّر على لاهوت الغرب في القرن السادس عشر أن يشرح سبب وجود كهنوت في الكنيسة الجامعة.

أما الشرق فقد سار عكس ذلك على خط مستقيم .. لم يقسم الآباء اللاهوت إلى أبواب منفصلة، بل حفظ الآباء التقسيم القديم:

* اللاهوت (الثيؤلوجيا).
* التدبير (أي خطة الله للخلاص، أو الإيكونوميا).

وأصبحت القاعدة اللاهوتية التي نراها في كل كتب الآباء هي:

"كل شيء من الآب بالابن في الروح القدس".

ومَن صَح إدراكه للثيئولوجيا، صح إدراكه وممارسته للإيمان والتدبير الإيكونوميا، وأي خطأ أو انحراف أو هرطقة في الثيئولوجيا تظهر على الفور في الإيكونوميا [١].

فالثالوث هو جوهر التعليم عن الله، وعن المسيح وعن الخلاص .. لاحظ كيف تبدأ الليتورجية القبطية: "**مجداً وإكراماً للثالوث القدوس الآب والابن والروح القدس .. سلاماً وبنياناً لكنيسة الله الواحدة الوحيدة** .." وكذلك ليتورجية الكنيسة البيزنطية: "**مباركةٌ مملكة الآب والابن والروح القدس** ..."، فالثالوث يشرح الإفخارستيا، كطعامٍ ومَنٍّ سماوي جاء من

---

(١) راجع كتابنا: المدخل إلى اللاهوت الأرثوذكسي، منشور على موقع www.coptology.com.

عند الآب. والثالوث هو الذي يبني الكنيسة، وبالتالي لابد من إعادة النظر في كل ما نقول حتى نضع التدبير على الأساس الأزلي المتين: الآب والابن والروح القدس.

سيادة قانون أو شرعية الموت

ميَّز القديس أثناسيوس بين ثلاثة أنواع من الموت:

النوع الأول: كما يقول هو:

"الإنسان إذ خُلِقَ من العدم فإنه فانٍ بطبيعته" (تجسد الكلمة ٤: ٦ ص ٢٨).

النوع الثاني: الموت الذي جلبه الإنسان على نفسه:

"ولكن البشر إذ رفضوا الأمور الأبدية، وتحولوا إلى الأمور الفاسدة بمشورة الشيطان، صاروا سبباً لفساد أنفسهم بالموت" (تجسد الكلمة ٥: ١ ص ٢٩).

النوع الثالث: بفساد البشر وسقوطهم في الخطية

"ساد عليهم الفساد .. وصار له سلطان على كل الجنس البشري أكثر من سلطانه الطبيعي، لأنه أتى نتيجة تهديد الله في حال عصيان الوصية" (تجسد الكلمة ٥: ٢ ص ٢٩).

والنوع الأول هو كما يقول عنه أثناسيوس كان يمكن أن يخلص منه الإنسان إذا ظل في شركة مع الله، حيث يقول:

"على أنه بفضل خلقة الإنسان على صورة الله الكائن كان ممكناً أن ينجو من الفساد الطبيعي، ويبقى في عدم فساد لو انه احتفظ بتلك الصورة بإبقاء الله في معرفته" (تجسد الكلمة ٤: ٦ ص ٢٨).

"كان الإنسان سينجو من الفساد الطبيعي؛ لأن الكلمة حل فيهم أو سكن معهم فحتى فسادهم الطبيعي لم يجسر أن يقترب منهم" (المرجع السابق ٥: ٢: ٢٩).

أمَّا النوعين الثاني والثالث، فهما نتيجة السقوط. فقد جلب الإنسانُ الموتَ على نفسه وسقط في الشر وصار قابلاً للموت .. ولكن الجديد هو سيادة الموت

كملك؛ لأنه لم يعد بعد هو الانحلال الطبيعي، بل الانحلال الذي جاء بسبب تهديد الإنسان في حالة العصيان بأنه يموت ويبقى في فساد الموت إلى الأبد، ويؤكد أثناسيوس إنه "**البقاء في حالة الموت والفساد**" (٤: ٥ ص ٢٧).

ويؤكد أثناسيوس في عبارات متكررة:

"ساد الموت كملك" (٤: ٤ ص ٢٧).

"لأن الموت، كما قلت سابقاً، صارت له سيادة شرعية علينا منذ ذلك الوقت، وكان مستحيلاً أن يُنقض الناموس، لأن الله هو الذي وضعه بسبب التعدي" (المرجع السابق ٦: ٢ ص ٣١).

"الموت يسودهم (البشر) بالفساد، وإذ رأى أيضاً أن التهديد بالموت في حالة التعدي قد مكَّن الفساد من طبيعتنا" (تجسد الكلمة ٨: ٢ ص ٣٦).

"كان الناموس أو الشريعة تقضي بموت الإنسان "يوم تأكل منها موتاً تموت" (تك ٢: ١٧) وكان يجب أن نموت حسب حكم الشريعة أو الوصية (تجسد الكلمة ٢٢: ١ ص ٧١).

وهذه هي خلاصة الموضوع كله من كلمات أثناسيوس نفسه:

"وطالما كانوا يستمدون وجودهم (البشر) من الله الكائن (أو الموجود) .. وبتعبير آخر يجب أن تكون النتيجة الانحلال، وبالتالي البقاء في حالة الموت والفساد" (٤: ٥ ص ٢٧).

كان الإنسان يستمد وجوده من الله، فهو كائنٌ كصورة الله، ويستمد كيانه ووجوده من الشركة .. فقد جاد الكلمة علينا بالوجود .. وحسب كلمات أثناسيوس جاء الشر، وهو ما لا يتفق مع طبيعة الله، وليس له في جوهر الله أو صفات الله ما يمد الشر بالبقاء. فالشر وليد مخيلة الإنسان وهو يساوي تماماً أصل الإنسان، وهو يعنى أنه من العدم الذي جاء منه الإنسان (راجع الرسالة إلى الوثنيين). وهكذا يقول أثناسيوس:

"كل ما هو شر فهو عدم (لأن الله لم يخلقه) وكل ما هو خير فهو كائن وموجود (لأن الله خلقه) (تجسد الكلمة ٤: ٥ ص ٢٧).

وعندما جلب البشرُ الموتَ والفساد على أنفسهم باختراع الشر، كما يقول أثناسيوس:

"قد علمنا أنَّ الإنسان بمجرد التعدي انحرف في تيار الفساد، الذي كان طبيعةً له وحُرِمَ من تلك النعمة التي سبق أن أُعطيت له وهي مماثلة لصورة الله (الابن)" (تجسد الكلمة ٧: ٤ ص ٣٥).

فالإنسان وقد انحرف في تيار الفساد، وخَلَق في داخله حياةً غير تلك التي أُعطيت له، أو بكلمات أخرى رفض الإنسان أن يكون صورة الله، رفض نعمة الله حسب النص السابق .. "**فَقَدَ نعمة الصورة**" (٧: ٤ ص ٣٥) وساد عليه الموت.

الدين الُمطالَب به الجميع

عندما قرأ أساتذة تاريخ العقيدة المسيحية كتابات القديس أثناسيوس، انقسموا إلى عدة طوائف:

١- طائفة حولت القديس أثناسيوس إلى مدافعٍ وشارحٍ لكل ما جاء في لاهوت العصر الوسيط، أي دفع الثمن والفدية لله الآب. وكلٌ هؤلاءِ من البروتستانت.

٢- طائفةٌ أخرى من الأنجليكان، وعلى رأسهم أستاذ تاريخ العقيدة المسيحية السابق في جامعة مانشستر L.W. Grensted وأستاذ تاريخ العقيدة السابق في جامعة كامبردج B. Baker قالوا إن أثناسيوس لا يعرف بالمرة فكرة الفدية، وإن دفع الثمن وترضية العدل الإلهي لا تظهر كما في الفكر اللاهوتي الغربي مثل أنسلم.

٣- وطائفةٌ ثالثة ميزت الفكر الشرقي الأرثوذكسي الذي يميز القديس أثناسيوس عن غيره مثل أستاذ تاريخ العقيدة المعاصر في جامعة أدنبرة T. Torrance والأستاذ السابق في جامعة درهام Turner.

وهكذا يجب أن يكون القارئ على حذر من الاتجاهات السابقة التي تخلط بين التعليم الأرثوذكسي حسب تاريخ العقيدة الأرثوذكسية والاتجاهات غير الأرثوذكسية التي حاول أساتذة اللاهوت من البروتستانت فرضها على فكر القديس أثناسيوس.

وقبل أن نناقش فكرة الدين يلزمنا أن نقف برهة عند الأمثلة والتشبيهات التي

يشرح بها القديس أثناسيوس موت المسيح على الصليب.

المثال الأول

يقول القديس أثناسيوس بعد أن يؤكد أن المسيح مات "**لكي يوفي الدين بموته**" (٩: ٢ ص ٤٠):

"وكما أنه لو دخل ملك عظيم مدينة عظيمة واتخذ إقامته في أحد بيوتها، فإن هذه المدينة تتشح بالشرف الرفيع ولا يعود عدو أو لص ينزل إليها لإخضاعها، بل على العكس تعتبر مستحقة لكل عناية، لأن الملك اتخذ مقره في بيت من بيوتها، كذلك كانت الحال مع ملك الكل (ربنا يسوع المسيح) (٩: ٣ - ص ٤٠).

هذا التشبيه لا يؤكد دفع فدية للآب ولا دفع الدين المطالب به الجميع، بل كما سبق وقال أثناسيوس نفسه بعد أن قدَّم فكرة الدين:

"وإذ اتحد ابن الله عديم الفساد بالجميع بطبيعة مماثلة، فقد ألبس الجميع عدم الفساد، بطبيعة الحال بوعد القيامة من الأموات. لأنه لم يعد ممكناً أن ينشب فساد الموت الفعلي أظفاره في البشر وذلك بسبب الكلمة الذي جاء وحل بينهم بجسده الواحد" (٩: ٢ ص ٤٠).

فالمثال ظاهر .. أعطى الملك بسكناه في المدينة الشرف وعدم الفساد، ولم يذكر أثناسيوس بالمرة دفع الدين للآب .. بل قال العكس تماماً.

المثال الثاني

"لأنه إذ أسس ملك منزلاً أو مدينةً وأحدق بها اللصوص بسبب إهمال سكانها، فإنه لا يهملها أو يتغاضى عنها بأي حال، بل يقوم ويهتم وينتقم من العابثين بها لأنها صنعة يديه، غير مبال بإهمال سكانها، بل بما يليق بذاته. وهكذا الله كلمة الآب الكلي الصلاح، لم يهمل الجنس البشري صنعة يديه ولم يتركه للفساد"

وهنا صلاح الملك يجعله يقوم ويخلِّص ما قد صنع وخلق بيديه. ويعتبر بعض علماء الآباء إن القديس أثناسيوس كتب هذه الفقرة بالذات ضد رأي العلامة أوريجينوس القائل بتقديم فدية للشيطان .. وهذه فكرة صائبة لأن القديس أثناسيوس يقول بشكل حاسم ومباشر:

"أبطل الموت بتقديم جسده وعالج إهمال البشر بتعاليمه ورد بسلطانه كل ما كان للإنسان" (تجسد الكلمة ١٠: ١ ص ٤١).

المثالان الثالث والرابع

بعد أن أكد أثناسيوس أن المسيح مثل المعلم الصالح الذي ينزل إلى مستوى تلاميذه (١٥: ١ ص ٥٥) يتقدم إلى المثال الرابع، وهو أقوى مثال ينفي فكرة دفع الدين للآب؛ لأن الفكرة الأساسية هي فكرة إبادة الموت:

"لهذا أتى الموت إلى جسده، ليس باختياره هو، بل بمشورة أعدائه" (٢٤: ٢ ص ٧٨).

والمثال الذي يشرح هذه الحقيقة:

"وكما أن المصارع النبيل – لا يختار خصومه الذين يبارزهم، لئلا يُشَك في أنه يخاف أشخاصاً معينين منهم، بل يترك الاختيار للمشاهدين، سيما إذا اتفق بان يكونوا أعداءه .. كذلك الحال أيضاً مع ربنا يسوع المسيح حياة الجميع، فإنه لم يختر لجسده موتاً معيناً، لئلا يُظَن بأنه خشيَ شكلاً آخر من الموت ولكنه قبل موت الصليب" (تجسد الكلمة ٢٤: ٣ ص ٧٩). وما هي النتيجة؟ غلب المصارع النبيل "أباد ذلك الموت، آمن الجميع بأنه الحياة، وأبيد سلطان الموت نهائياً" (٢٤: ٣ ص ٧٩).

المثال الخامس

غلب المسيحُ الظالمَ، الموتَ والشيطانَ .. وكما ذكرنا من قبل تعتبر هذه الفقرة أيضاً ردٌ على العلامة أوريجينوس. يقول أثناسيوس عن المسيح "**الملك الحقيقي**"، وهي

عبارة تفند ادعاء أوريجينوس بسلطان الشيطان على الرب، فهو أي الشيطان ليس الملك الحقيقي، بل الكلمة:

"وكما انه عندما يُغلب الظالم أمام الملك الحقيقي وتوثق يداه ورجلاه .. ولا يعود أحد يخشى غضبه أو وحشيته بسبب الملك الذي ظفر به، كذلك الموت أيضاً إذ قهره المخلص وشهَّر به على الصليب، وأوثق يديه ورجليه" (٣٧: ٤ – ٨٧).

المثال السادس

جاء المسيح لكي يرد عدم الفساد للإنسان. ويقدم أثناسيوس مثالاً على ما حدث للإنسانية، فقد أعطى المسيح عدم الفساد مثل مادة الإسبستوس التي لا تقوى النار عليها وخلَّص الجنس البشري من الفساد والموت .. وهكذا لا يشُك "**أحدٌ في أن الموت قد أُبطِل وأُبيد**" (٢١: ٤ – ٥ ص ٨٩).

المثال السابع

اعتمد القديس أثناسيوس على التقليد الكنسي الخاص بالاتجاه نحو الشرق، نحو "شمس البر" ربنا يسوع المسيح، وقال مؤكداً بأن المسيح عندما صعد على الصليب قد قهر الموت، وأشرق مثل "**الشمس عندما تشرق بعد انتهاء الليل .. وأرسلت نورها في كل مكان، وبددت الظلام .. هكذا أيضاً إن كان الموت قد احتُقِرَ (بواسطة المؤمنين والشهداء) وديسَ تحت الأقدام منذ ظهور المخلص في الجسد ..**" (٢٩: ١ -٣ ص ٩٠ – ٩١).

المثال الثامن

يقول أثناسيوس إن المسيح هو "**الحياة**"، ولذلك السبب لبِس الجسد لكي "**يلتقي بالموت في الجسد ويبيده**"؛ لأن الجسد مثل القش، قابل للاحتراق رغم إبعاد النار عنه، ولكن مرةً ثانيةً إذا أحاط إنسانٌ القشَ بمادة الإسبستوس، فإن القش يصمد أمام النار:

"كذلك أيضاً بنفس هذه الطريقة يستطيع المرء أن يقول عن الجسد والموت، إنه لو كان الموت قد أُبعِد عن الجسد بمجرد إصدار أمر من

> الله، لبقي رغم ذلك قابلاً للموت والفساد حسب طبيعة الأجساد ..
> ولكن لبِس كلمة الله الذي بلا جسد ذلك الجسد .. ولبس الحياة
> كثوب والفساد قد أبيد فيه" (٤٤: ٧ - ٨ ص ١٣٥ - ١٣٦).

وبعد. ماذا يمكن بعد كل هذه الأمثلة أن نضيف؟

قدَّم الابنُ جسده للآب وللموت معاً

لا يمكن لأي مؤرخ مسيحي مهما كانت مدرسته الفلسفية واللاهوتية أن يترك أو ينسى موضوع الذبيحة .. فالكلمة عزيزة وغالية جداً لأنها من كلمات الوحي المقدس ولأنها ذات صلة تحتاج إلى دراسة شاملة للذبائح في العهد القديم.

يقول أثناسيوس إن الرب قدم جسده "ذبيحةً"، ويحصر معنى تقديم الذبيحة في الفصل العاشر من كتاب تجسد الكلمة.

* قدم ذبيحة عن الأجساد الإنسانية عندما "**أخذ الكلمة جسداً مشابهاً**" (١٠: ٤ ص ٤٢).
* "**لأنه بذبيحة جسده وضع حداً لحكم الموت الذي كان قائماً ضدنا**" (١٠: ٥ ص ٤٣).
* "**بتقديم هيكله وآنيته البشرية لأجل حياة الجميع**" (٩: ٢ ص ٤٠).

ولا يفوت القديس أثناسيوس أن يذكر أن الابن هو كاهن، وإنه "**خالق كل الأشياء**". وبناء على ذلك:

> "ولما كان كل البشر تحت حكم الموت [1] فقد بذل جسده للموت عوضاً عن الجميع وقدمه للآب. كل هذا فعله بمحبته للبشر [2]، وذلك أولاً لكي يبطل الناموس الذي كان يقضي بهلاك البشر، إذ مات الكل فيه، لأن سلطانه قد أكمل (إذ وصل إلى غايته ونهايته في جسد الرب) ولا يعود ينشب أظفاره في البشر الذين ناب عنهم. ثانياً لكي يعيد البشر إلى عدم الفساد بعد أن عادوا إلى الفساد،

---

[1] راجع النص اليوناني والأصح هو حكم وليس قصاص الموت في فصل ٨: ٤ ص ٣٧.

[2] ويجب قراءة النص حسب اليوناني بمحبته للبشر وليس حسب الترجمة الإنجليزية التي لا تعرف تعبير محب البشر (فصل ٨: ٤ ص ٣٧).

ويحييهم من الموت بجسده وبنعمة القيامة، وينقذهم من الموت مثل
إنقاذ القش من النار[١]" (٨: ٤ ص ٣٧ - ٣٨).

وهنا يجب أن نتوقف أمام هذا النص الجميل لكي نرى الفرق الجوهري بين القديس أثناسيوس والفكر الغربي كله:

* قدم المسيح ذبيحة جسده للآب بسبب محبته للبشر.

* أبطل شريعة وحكم وناموس الموت.

* أعاد البشر إلى عدم الفساد بنعمة القيامة.

هذه العناصر الثلاثة السابقة لا تربطها بفكر العصر الوسيط أي رابطة لأن المسيح له المجد لم يقدم جسده إرضاءً للآب، أو لكي يرضي مطالب العدل الإلهي، بل لكي "**يبطل ناموس الموت**"؛ لأن سلطان الموت انتهى على الصليب. والجدير بالاهتمام أن أثناسيوس يقول صراحة:

"قدم للموت ذلك الجسد الذي أخذه لنفسه كمحرقة وذبيحة خالية
من كل شائبة" (٧: ١ - ص ٣٩).

فقد غابت تماماً فكرة قداسة المسيح عن فكر العصر الوسيط وما بعده .. وجاء تفسير العهد الجديد على أساس العهد القديم ليؤكد أن المسيح صار خطيةً ولعنةً، وإنه صار خاطئاً ومات كخاطئٍ، بينما يجب أن يحدث العكس، وهو تفسير العهد القديم على أساس وفي نور العهد الجديد.. فالتعليم الشرقي يقول حسب كلمات معلمنا أثناسيوس:

"لأن الجسد الخالي من كل شائبة" هو الذبيحة، "فقد رفع حكم
الموت فوراً عن جميع من ناب عنهم، إذ قدم عنهم جسداً مماثلاً
لأجسادهم" (٩: ١ - ص ٣٩).

وهنا يجب أن نرى في إطار الشرح الذي ذكرناه سابقاً التسليم الرسولي للقديس أثناسيوس ولا يجب أن نلتفت إلى أي تفسير آخر؛ لأنه يقول عن موت المسيح "**كان من**

---

(١) راجع الأمثلة السابقة المثال الثامن.

الضروري أن يتم حكم الموت نيابة عن الجميع" (٢١: ٥ ص ٧٣). ولكن حكم الموت خاص بالابن والآب والروح القدس .. وهو موت نيابي بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، ولكن حسب الإطار الشرقي. لم يكن موتاً لإيفاء عقوبة، بل كما يقول أثناسيوس:

"لهذا نال الجسد منه قوة لأنه القوة وهو الحياة" (٢١: ٥ ص ٧٣).

"مات لفداء الجميع، لكنه لم يرى فساداً إذ لم يكن جسده سوى جسد ذاك الذي هو الحياة ذاتها" (٢١: ٧ ص ٧٣).

وهنا بشكل خاص يجب وضع هذه الكلمات في برواز كبير:

"إن المخلص لم يأت لكي يتمم موته، بل موت البشر" (٢٢: ٣ ص ٧٤ - ٧٥).

لو كان المسيح مات كخاطئ، فإنه يكون قد مات موت الخطاة، ولكنه جاء لا لكي يموت موت الخطاة، بل موت من هو الحياة .. ولذلك لم يكن هذا هو موت المسيح بل موت البشر، لكي يقهر موت البشر بالحياة التي لا تموت حسب كلمات أثناسيوس نفسه:

"فإن المخلص لم يأت لكي يتمم موته هو بل موت البشر لذلك لم يقدم جسده إلى موت أتى به من نفسه لأنه هو الحياة، ولم يكن قابلاً للموت، بل قبل الموت الذي أتاه من البشر لكي يبيده نهائياً عندما يلتقي به في جسده" (٢٢: ٣ - ص ٧٤ ص ٧٥).

وعندما يكرر القديس أثناسيوس عبارته: "**سيادة الموت على البشر كملك**" (٤: ٤ ص ٢٧) وهي عبارة الرسول بولس في (رو ٥: ١٤- ١٧)، فهو يؤكد أن موت الرب على الصليب لم يكن موت من يسود عليه الموت كملك، بل موت مَن هو "**فوق الكل**" (٧: ٥ ص ٣٥) وهو موت "**قد وطئه بجسده أولاً وأبطله**"، وهو في عبارة واحدة "**المسيح قد قتل الموت**" (٣٠: ٢ ص ٩٣) والعكس غير صحيح بالمرة.

ويربط القديس أثناسيوس في عبارة جامعة بين موت المسيح على الصليب ومحبته للبشر وعمل الابن الكلمة الخالق ويقول:

"لهذا أشفق على جنسنا

ترفق بضعفنا

رثي لفسادنا

وإذ لم يتحمل أن يرى الموت تصير له السيادة لئلا تفنى به الخليقة

وتذهب صنعة أبيه في البشر هباء" (٨: ٢ ص ٣٧).

هذه العبارات تعلن محبة الابن للخليقة، وبعدها يقول عن هذه المحبة:

"بذل جسده للموت عوضاً عن الجميع" (٨: ٤ ص ٣٧).

هذا البذل هو بذل محب البشر، وبذل من هو فوق الكل وسيد الخليقة

"قدم جسده للآب. كل هذا فعله بمحبته للبشر أبطل الناموس الذي

كان يقضي بهلاك البشر" (٨: ٤ ص ٣٧ - ٣٨).

هذه العبارات يجب أن نقرأها بدقة حتى لا نقع في أخطاء العصر الوسيط، ولكي نصل إلى تصورٍ دقيق علينا أن ندرك أنَّ تعليم القديس أثناسيوس يدور حول محور هام غائب من فكر العصر الوسيط وهو محور النعمة.

يؤكد أثناسيوس الحقائق التالية عن النعمة

١- الوجود نعمة من الله (٣: ٣ ص ٢٤).

٢- الصورة الإلهية هي نعمة أخرى (٣: ٣ ص ٢٤).

٣- نال الإنسان نعمة الشركة في طبيعة الابن العاقلة التي يحددها أثناسيوس باسم "**قوة الكلمة**" (٣: ٣ ص ٢٤).

٤- كل هذا يحصره أثناسيوس في كلمات ذات دلالة: "**وهبنا مجاناً بنعمة الكلمة حياة منسجمة مع الله**" (٥: ١ ص ٢٩). هذه الحياة هي الحياة حسب الصورة الإلهية، وهي حياة حسب نعمة الشركة "**الخليقة التي خلقت عاقلة والتي شاركت الكلمة..**" (٦: ٤ ص ٣٢).

ولذلك عندما يدرس أثناسيوس موضوع الخلاص، فهو لا يستطيع أن ينسى أن المحور الأصلي هو "النعمة"، وحتى خلق الإنسان، كان الإنسان قد خُلق حسب صورة الله، وأعطى الله الوصية للإنسان لكي تحفظ النعمة "**سبق فدعم النعمة المعطاة للإنسان بالوصية التي أعطاها له، وبالمكان الذي عينه للإقامة، لأنه أتى بالإنسان الى جنته وأعطاه وصية**" (٣: ٤ ص ٢٥).

فالخلاص هو حسب كلمات أثناسيوس "**يعيد النعمة ..**" (٧: ٤ - ص ٣٥)، و"**يجدد خلقة كل شيء**" (٧: ٥ ص ٣٥)، ويعيد البشر إلى عدم الفساد "**يحييهم من الموت بجسده بنعمة القيامة**" (٦: ٤ ص ٣٧ - ٣٨).

الموت والنعمة

هذا يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار في ضوء ما يقرره أثناسيوس نفسه عن الموت:

١- "**لا يمكن أن يبطل فساد البشر إلاَّ بالموت كشرط لازم**" (٩: ١ ص ٣٩). لأن الموت جاء بسبب سقوط الإنسان، ومعه تهديد الله وصارت له سيادة شرعية علينا حسبما شرحنا في الصفحات السابقة.

٢- وهنا يضع أثناسيوس عمل الكلمة الواهب لنعمة الوجود، ونعمة الصورة، والذي أشرك الخليقة العاقلة في قوته الإلهية في إطار محدد "**الكلمة فوق الكل**" (٩: ١ ص ٣٩). فهو الخالق الذي منه تأخذ كل الخليقة حياتها. هو الحياة التي لا يمكن أن يسود عليها الموت. وإذا كان الإنسان بسبب الخطية قد "**حُرِمَ من تلك النعمة التي سبق أن أُعطيت له وهي مماثلة لصورة الله (الابن)**" (٧: ٤ ص ٣٥)، صار موت المسيح هو رد نعمة الصورة وعادة الإنسان إلى ما كان عليه، وهو إعادة الحياة بواسطة الكلمة "**يحييهم من الموت بجسده**[1] **وبنعمة القيامة**" (٨: ٤ ص ٣٨). ورَدُ الحياة للإنسان مصدره "**اتحاد الكلمة الذي هو فوق الكل بالناسوت**" (٩: ١ ص ٣٩).

٣- ماذا حقق الاتحاد؟ يقول أثناسيوس في عبارة بليغة لا يمكن ترجمتها بدقة ولكن الفكرة الأساسية ظاهرة: "**حتى باتحاده بالكلمة الذي هو فوق الكل يكون جديراً أن يموت نيابة عن الكل**" (٩: ١: ١ ص ٣٩). ما معنى جديراً أن يموت نيابة عن الكل؟ والجواب هو:

أ- أن يبقى في عدم فساد بسبب الاتحاد لأن فساد الناسوت يؤكد سيادة الموت على المسيح.

---

(1) هذه عبارة تشير إلى الإفخارستيا وهي عبارة متكررة في مؤلفات آباء الإسكندرية "جسد الحياة" أو "جسد من هو الحياة".

ب– عدم فساد الناسوت يحرر الناسوت نفسه وبذلك "**يتحرر الجميع**".

فالكلمة فوق الكل لأنه خالق كل الأشياء، وهو جدير بأن يموت نيابة عن الكل لكي يرد النعمة ويبطل الفساد ويرفع حكم الموت. وهذا ما يؤكده أثناسيوس: "**ولأن كلمة الله متعال فوق الكل، فقد كان يليق به بطبيعة الحال أن يوفي الدين بموته وذلك بتقديم هيكله وأمنيته البشرية لأجل حياة الجميع**" (٩: ٢ ص ٤٠).

وهنا نرى إن الدين هو الموت، حسب عبارة أثناسيوس: "**يوفي الدين بموته وذلك بتقديم هيكله**". ولكن إيفاء الدين هو رد الحياة أو حسب عبارة أثناسيوس: "**لأجل حياة الجميع**" (٩: ٢ ص ٤٠)، ولذلك يقول:

"زال عنهم فساد الموت" (٩: ٤ ص ٤٠).

"لم يكن مستطاعاً لأحد آخر أن يرد البشر عن الفساد الذي بدأ غير كلمة الله الذي خلقهم أيضاً من البدء" (١٠: ٣ ص ٤٢).

"بذبيحة جسده وضع حداً لحكم الموت الذي كان قائماً ضدنا، ووضع بداية جديدة للحياة برجاء القيامة من الأموات" (١٠: ٥).

وإذا كانت الخطية هي تهاون بالنعمة (١١: ٤ ص ٤٥) فهي تحوُّل في حياة الإنسان قبل أن تكون كسراً للوصية؛ لأن الوصية كما رأينا سابقاً أُعطيت لكي تحفظ النعمة. أمَّا النعمة، فهي حسب عبارات أثناسيوس هي عطية صلاح الله:

"أعطاهم الله بصلاحه نصيباً من صورته – ربنا يسوع المسيح – وخلقهم على صورته ومثاله "لكن البشر إذ تهاونوا بالنعمة تركوا الله بالكلية" (١٠: ٤ ص ٤٥).

المثال التاسع

لقد ذكرنا سابقاً كيف قدم أثناسيوس ثمانية أمثلة على عمل الله الكلمة، وتركنا المثال التاسع لأنه خاص بتجديد الإنسانية، فالقديس أثناسيوس يرى أن صورة الإنسان قد تلطخت، وكان من الضروري أن يحضر صاحب الصورة نفسه "**لكي يساعد الرسام على تجديد الصورة**" (١٤: ١ ص ٥٢) ويشرح أثناسيوس هذا المثال مؤكداً "**وعلى هذا المثال عينه أتى إلى عالمنا ابن الآب لكي يجدد خلقة الإنسان الذي خلق مرة على صورته**" (١٤: ٢

ص ٥٢). وتجديد خلقة الإنسان. هذا المثال أهم من السابقين؛ لأنه يتناغم مع التعليم الخاص بالتجديد الذي يصفه أثناسيوس بأن المخلص تمم أو حقق وجهي المحبة: "**أولاً** **برفع الموت عنا وتجديدنا ثانية، ثانياً بإعلان نفسه وتعريف ذاته بأعماله بأنه كلمة الآب**" (١٦: ٥ - ص ٥٩).

يقودنا المثال التاسع إلى نقطة هامة لم تحظَ بعناية الدارسين الغربيين، وهي الابن الكلمة الذي هو حياة الكل.

المسيح حياة الكل

تقول كنيسة القديس أثناسيوس في أوشية الإنجيل للمسيح: "**أنت هو حياتنا كلنا**"، ويقول القديس أثناسيوس: "**ربنا ومخلصنا يسوع المسيح حياة الكل**" (٢٤: ٣ - ص ٧٩)، فالحياة ليست فكرة مجردة، بل الحياة هي الكلمة الذي هو "**فوق الكل**"، والذي هو خالق كل الأشياء، هكذا يفهم أثناسيوس أن عمل الكلمة هو رد الحياة للإنسان وهو يؤكد هذا:

> "لم يكن ممكناً أن يحول الفاسد إلى عدم فساد إلا المخلص نفسه، الذي خلق من البداية كل شيء من العدم، ولم يكن ممكناً أن يعيد للبشر صورة الله ومثاله إلاَّ صورة الآب، ولم يكن ممكناً أن يلبس المائت عدم الموت إلاَّ ربنا يسوع المسيح الذي هو الحياة" (٢٠: ١ ص ٦٨).

وهكذا إن شئنا المقارنة مع فكر العصر الوسيط نجد أن أثناسيوس يضع صفات الفادي:

١- الخالق الذي خلق كل شيء.

٢- الحياة الذي يستطيع أن يُلبس المائت عدم الموت. بينما يتمسك العصر الوسيط منذ زمن أنسلم بشروط أخرى مثل تلك التي ذاعت عندنا هي:

١- خطية الإنسان غير المحدودة.

٢- عقوبة الإنسان غير المحدودة.

٣- ضرورة تقديم فدية غير محدودة.

وأخيراً: لابد أن يكون الفادي غير محدود.

وخطورة هذا التعليم هي أن الفادي، والفدية، والخطية، والعقوبة تشترك كلها في صفة "عدم المحدود" وبالتالي تتساوى فيما بينها، وهو ما يجعل الفداء عملية تجارية لا تعلن نعمة الله، بينما رأينا في الصفحات السابقة أن الخالق الكلمة رد الحياة للإنسان وأعطاه نعمة الحياة. وإذا قال أثناسيوس إن رد الفاسد إلى عدم الفساد، ورد المائت إلى عدم موت، فهو يقارن - مثل الرسول بولس - بين آدم والمسيح. وعندما يشرح تفصيل الفداء ويؤكد عدم فساد جسد الكلمة يقول:

"وان كان قد مات لفداء الجميع، لكنه لم ير فساداً لأن جسده قام ثانية سليماً جداً، إذ لم يكن سوى جسد ذاك الذي هو الحياة ذاتها" (٢١: ٧ ص ٧٣).

وهكذا أخذ الكلمةُ الموتَ، موت البشر، وليس موته هو لأنه لا يموت، وقابَل الموتَ بحياته، فهو "**الحياة ذاتها**"، وبالتالي عندما تقابلت حياة الكلمة بالموت "**انتظر الموت ليبيده**" (٢٢: ٢ ص ٧٤)، فهو "**الكلمة الحياة**" (٢٢: ١ ص ٧٤)، هو الذي مات، أو "**ذاق الموت بالجسد**" حسب تعبير صلاة الساعة التاسعة، ولنفس السبب يقول أثناسيوس:

"إن المخلص لم يأت لكي يتمم موته هو، بل موت البشر، لذلك لم يضع جسده بموت أتى به من نفسه لأنه هو الحياة، ولم يكن قابلاً للموت، بل قبل الموت الذي أتاه من البشر، لكي يبيده نهائياً عندما يلتقي به في جسده" (٢٢: ٣ ص ٧٤ - ٧٥).

و"**الحياة في ذاتها**" ليست فقط اللاهوت دون الناسوت، بل الحياة الواحدة للكلمة المتجسد، وهو ما يؤكده أثناسيوس بقوله:

" لم يُصِب الموتُ الجسدَ بأي ضعف طبيعي بسبب الكلمة الذي حل فيه، بل أُبيد الموت في الجسد بقوة المخلص" (٢٦: ٦ ص ٨٥).

واتحاد اللاهوت بالناسوت يجعل أثناسيوس قادراً على أن يقول عن جسد

الكلمة القابل للموت (٣١: ٤ ص ٩٨) إنه مات فعلاً، ولكن "**كان مستحيلاً أن يبقى مائتاً إذ صار هيكلاً للحياة، لهذا، فإذا مات كجسدٍ مائتٍ، عاد إلى الحياة بفضل الحياة التي فيه**" (٣١: ٤ ص ٩٨).

وعودة الجسد أو الناسوت للحياة بفضل حياة الكلمة أو الحياة ذاتها هو أوضح جانب للتعليم الشرقي الأرثوذكسي عن الخلاص، فقد مات الناسوت القابل للموت، وبموت الناسوت فَقَدَ الموتُ سلطانه؛ لأن الموت كان الحكم الإلهي الذي تم في جسد الرب، ولكن هنا رفع المسيح الحكم، وهذه هي الأفعال التي تتناسب مع التعليم الشرقي.

* سلطانه قد أُكمل أو تم (٨: ٤ ص ٣٨).
* رفع حكم الموت فوراً (٩: ١ ص ٣٩).
* أبطل الموت بتقديم جسده (١٠: ١ ص ٤١).
* وضع حداً لحكم الموت الذي كان قائماً ضدنا (١٠: ٥ ص ٤٣).
* أباد الموت في جسده نهائياً (١٣: ٩ ص ٢٥١).
* القضاء على الموت والفساد كليةً بفضل اتحاد الكلمة بالجسد (٢١: ٥ ص ٧٠).
* الحكم قد بَطُلَ (٢٢: ١: ٧١).
* انتظر الموت ليبيده (٢٢: ٢ ص ٧٤).
* شوكته في المستقبل قد أُبطِلت (يوم الدينونة) (٢٣: ٤ ص ٧٧).
* يباد الموت بقوة المخلص (٢٦: ٦ ص ٨٥).
* كذلك الموت قد قهره المخلص وشهَّر به على الصليب وأوثق يديه ورجليه (٢٧: ٤: ص ٨٧).
* أحرز الانتصار والغلبة على الموت، وجعله يفقد كل قوته (٢٩: ١ ص ٩٠). (راجع صلاة قسمة القديس كيرلس السكندري: "**يا مسيح الله الذي بموتك قتلت الموت الذي قتل الجميع**" قسمة رقم ١٨.

هذه الأفعال تؤكد سيادة الكلمة وقوته وقدرة الحياة ذاتها، أي حياة الكلمة على أن يحوِّل الفساد إلى عدم فساد، والموت إلى حياة.

جسد آدم الجديد أو آدم الثاني

يقارن القديس أثناسيوس – مثل الرسول بولس – بين آدم الأول وآدم الثاني، ومع أن المعلم السكندري لم يقدِّم لنا إلاَّ القليل، وفي إطار التعليم الرسولي للرسول بولس، إلاَّ أننا لكي نحصل على تفاصيل أكثر علينا أن ندرس المقالات الأربعة في الرد على الأريوسيين وبالذات المقالة الثانية والثالثة.

آدم الأول وآدم الثاني في كتاب تجسد الكلمة:

يقدم القديس أثناسيوس هذه المقارنة في الفصول ٢٠ و٢١ بشكل ظاهر، ولكنه لا ينسى بالمرة الفرق الدقيق بين آدم الأول وآدم الثاني. وسوف يرى القارئ أن أهم ما يميز كلمات وفكر القديس أثناسيوس هو كلمات الرسول بولس نفسه.

آدم الأول	المسيح آدم الثاني
مائت	عديم الموت
فاسد	أُبيد الفساد بنعمة القيامة

ويعيد القديس أثناسيوس الفقرة الخاصة بالقيامة من (١ كو ١٥: ٥٣–٥٥) في الفصل ٢١: ٢ ص ٧١–٧٢) مؤكداً ذات التعليم عن تحول حياة الإنسان ومصيره من الفساد إلى عدم الفساد ومن الموت إلى القيامة.

لكن ما هو جديد، ولم يذكره الرسول بولس وأضافه القديس أثناسيوس هو التحول في ناسوت المسيح، حيث يشرح القديس أثناسيوس التعليم الرسولي مؤكداً أن قيامة المسيح هي علامة الظفر والغلبة على الموت وشارحاً معنى كلمات الرسول بولس "يقوم في مجد" (١كو ١٥: ٥٥) بأن هذا المجد هو:

"عدم الفساد،

عدم إمكانية التألم الذين حصل عليهما جسده" (٢٦: ١ ص ٨٣).

وهكذا يعطي أثناسيوس البعد الأخروي المجيد لقيامة الرب مؤكداً أن الرب مات فعلاً، ولكن بفضل اتحاد الكلمة بالجسد تحول الجسد إلى حياة عدم التألم وعدم الفساد، وهما من صفات اللاهوت. وهكذا إذ لم يستخدم أثناسيوس العبارة المألوفة عن "تألُّه

جسد الكلمة" في كتاب تجسد الكلمة استخدم المرادف لفكرة التألّه هو "عدم الفساد وعدم الألم"، وفي دفاعه عن خلود الإنسان أو عدم الموت، يؤكد أثناسيوس أن الخالق – الفادي والمخلص كان يستطيع أن يعيد الإنسان إلى ما كان عليه، أي عدم الموت بواسطة الكلمة الخالقة التي خلق بها كل الأشياء من العدم، وهو ما يصفه بأنه "**نُطق ملكي كريم**" (٤٤: ١ ص ١٣٣) ولكن أثناسيوس يقدم هنا لاهوت الإسكندرية والتسليم الرسولي ويرد على الاعتراض الذي يبدو من سياق الكلام كأحد الاعتراضات الفلسفية ويقول: "**منذ البدء لم يكن للكائنات وجود على الإطلاق، وكان النطق الملكي هو المطلوب لخلقة كل شيء**" (٤٤: ٢ ص ١٣٣) لكن بعد خلق الإنسان وسقوطه "**أصبح الأمر يحتاج إلى علاج ما هو كائن ووصل إلى حالة السقوط**" (٤٤: ٢ ص ١٣٣) وهنا في هذه الفقرة بالذات يستخدم أثناسيوس فعل "**يشفي**" وهو أحد معان كلمة "**المغفرة**" (٤٤: ٢ ص ١٣٤)، ولذلك يصف الرب بأنه "**الطبيب والمخلص**".

فكيف شفى الطبيبُ الطبيعة الإنسانية؟

كان مرض الموت والفساد محتاجاً إلى الحياة "**حتى كما تمكن الموت من الجسد تتمكن منه الحياة**" (٤٤: ٤ ص ١٣٤). وجاء الحياة وتمت شركة الحياة في المائت والفاسد، فماذا حدث؟

"**لبِس الجسد الحياة بدل الموت**"، ثم "**نزع عنه الفساد**" وجدد المسيح الطبيعة الإنسانية وغلب الموت؛ لأنه حل واتحد بالجسد.

> "لهذا السبب كان معقولاً جداً أن يلبس المخلص جسداً، حتى إذا ما اتحد الجسد "بالحياة" لا يبقى في الموت كمائتٍ، بل يقوم إلى عدم الموت إذ يلبس عدم الموت. وما دام قد لبِس الفساد، فما كان ممكناً أن يظهر الموت إلاَّ في الجسد وفقاً لطبيعة الجسد، لهذا لبِس المسيح جسداً لكي يلتقي بالموت في الجسد ويبيده. لأنه كيف كان ممكناً إقامة الدليل على أن الرب هو الحياة. أحيا ما كان مائتاً" (٤٤: ٦ ص ١٣٥).

فالأمر الملكي كان قادراً على إبعاد الموت (٤٤: ٨ ص ١٣٦)، ولكن كان من

الضروري أن يعيد الله عدم الموت بالشركة في الكلمة، ويرد نعمة الصورة، ولكي يملأ الإنسان من الحياة ومن لاهوته (٤٥: ١ ص ١٣٧).

وهكذا في عبارة ختامية يقول أثناسيوس:

"لأنه تأنس (صار إنساناً) لكي نصير نحن آلهة" (٥٤: ٣ - ص ١٥٩).

وشرح هذه العبارة بكلماته الواضحة وحصر التأله في هذه المعاني:

"لكي يعطينا فكرة عن الآب غير المنظور ...

نرث عدم الموت، ...

فإن البشر الذين كانوا يتألمون، والذين لأجلهم احتمل كل ذلك، قد خلصهم وحفظهم مثله في حالة عدم التألم" (٥٤: ٣ ص ١٥٩).

الفصل العاشر

تمييز معاني المغفرة

تؤكد كل الليتورجيات الأرثوذكسية على أن المغفرة ليست قاصرة على العفو الإلهي وحده، وإنما هناك إلى جانب معنى العفو، الشفاء والاستنارة، والمصالحة، والتطهير. ولكن التركيز على معنى العفو وحده، أدى للأسف إلى هجر هذه المعاني وتغيِّيبها. ولا شك أن عدم تمييز المعاني المختلفة للمغفرة، يؤدي بنا إلى كثير من اللبس في فهم العطية التي نحصل عليها في الإفخارستيا، وفي سر التوبة والاعتراف، أو في سر مسحة المرضى، ولهذا يهمنا أن نضع أمام القارئ مختلف هذه كالآتي:

أولاً: الشفاء:

ويعود هذا المعنى إلى معجزات الرب نفسه حيث كان الشفاء هو غفران الخطايا، وهذا تأكيد للنبوة التي وردت في المزمور "أرسل كلمته فشفاهم" (مز ١٠٧: ٢٠). ويقول الرب نفسه: "إيمانك قد شفاك"، بعد قوله: "مغفورة لك خطاياك" (متى ٩: ٢٢).

والخطية مرض حسب تعبير المزمور "يا رب إلهي استغثت بك فشفيتني. يا رب أصعدت من الهاوية نفسي" (مز ٣٠: ٢ - ٣) ويقول داود: "أنا قلت يا رب ارحمني. اشف نفسي لأني قد أخطأت إليك" (مزمور ٤١: ٤) .. وورد هذا المعنى بوفرة في صلوات المعمودية ومسحة المرضى، ونكتفي بعبارة تحليل الآب: "أيها الرب شافي نفوسنا وأجسادنا"، بل ما أكثر العبارات التي وردت في صلوات القداسات الشرقية الأرثوذكسية عن شفاء النفس والجسد بسبب الشركة في جسد الرب ودمه: "شفاء للمرضى .. الخ".

ثانياً: الاستنارة العقلية أو الروحية

عندما يشرق نور الحياة الإلهية علينا نقول: "الرب نوري وخلاصي" (مز ٢٧: ١) وعن إشراق نور المعرفة يقول المزمور: "لماذا رفضتني .. أرسل نورك وحقك هما يهديانني ويأتيان بي إلى جبل قدسك" (مزمور ٤٣: ٣)؛ لأن في النور معرفة وهداية وعندما يشرق نور الحياة يقول المزمور: "لأنك نجيت نفسي من الموت نعم ورجلي من الزلق لكي أسير قدام الله في نور الأحياء" (مز ٥٦: ١٣) .. ولأن معرفة الرب هي النور الذي يبدد ظلمة الخطية يقول أشعياء "هلم فنسلك في نور الرب" (أشعياء ٢: ٥)، ولذلك السبب عينه قال الرب نفسه: "أنا هو نور العالم. من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة" (يوحنا ٨: ١٢) وعندما شفى المولود الأعمى، وهو فصل الإنجيل الذي يقرأ في أحد التناصير، وهو ترتيب طقس كنيسة الإسكندرية؛ لأن المولود الأعمى حسب شرح الآباء أوريجينوس وكيرلس الكبير وغيره هو مثال للنفس البشرية التي تحتاج إلى الاستنارة. لذلك يقول المسيح قبل شفاء الأعمى: "أنا نور العالم" (يوحنا ٩: ٥). ويعرف كل الذين درسوا طقس المعمودية وترتيب دخول الموعوظين إلى الكنيسة أن الموعوظ الذي قبل الإيمان واعترف به كان ينتقل إلى رتبة (المستنيرين) لأن المزمور يقول: "فتح كلامك ينير عقل الجهال" (مز ١١٩: ١٣٠). ونور المعرفة هو أحد جوانب الخلاص الأساسية، ولذلك يطلب المزمور نور الله وأن يشرق الله بنفسه "أنر بوجهك فأخلص" (مز ٨٠: ٣). ولنفس السبب عينه يقول الرسول بولس عن الهالكين: "الذين فيهم اله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين لئلا تضيء لهم إنارة إنجيل مجد المسيح الذي هو صورة الله" (٢ كو ٤: ٣-٤).

وكثيراً ما تداخلت صورة إله هذا الدهر، أي الشيطان مع صورة الله الحقيقي والحي يسوع المسيح، وكثيراً نخلع على المسيح أوصاف القسوة والتشفي، ونخلط بين إله الدهر والرب المخلص، ولكن الرسول يقول بعد ذلك: "لأن الله الذي قال أن يشرق نور من ظلمة هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح" (٢ كو ٤: ٦). وقد تركنا هذا الجانب الإلهي والرسولي لأننا لا نريد معرفة الحق، بل نريد أن تكون جماجم الناس فارغة بلا عقل .. لا نريد إنارة الجميع "في ما هو شركة السر الخفي غير المعلن والذي أعلن في يسوع المسيح" (أفسس ٣: ٩).

تُرى لماذا لا نريد الاستنارة؟ .. لأن النور الذي يشرق بالتعليم الرسولي يقود الإنسان مباشرة إلى الله، وبذلك يتقلص دور المؤسسات الدينية. وإذا قال المسيح إنه هو (نور العالم)، فهو لا يشرق بواسطة البشر ولا بأسلوب بشري، بل يشرق نوره الذي لا يستمده من آخر في قلوب المؤمنين (أفسس ١: ١٨).

وكثيراً ما نقول: "لكي بقلب طاهر ونفس مستنيرة ووجه غير مخزى وإيمان بلا رياء.."؛ لأننا نقبل هذا النور في أرواحنا وأجسادنا عندما نأخذ الإفخارستيا المقدسة، فيشرق فينا نور معرفة المسيح ونور الحياة ويطرد ظلمة الخطية.

ثالثاً: المصالحة مع الله:

لم تكن العداوة قائمة في الله نفسه .. فالله لا يعادي الخطاة .. والله كان يقبل عداوة البشر .. هذا ما يصرح به الإيمان الرسولي وتعلنه الكنيسة في صلواتها:

> "يا سيدنا ومخلصنا محب البشر الصالح محيي أنفسنا يا الله الذي اسلم ذاته عنا خلاصاً من خطايانا **الذي بكثرة رحمته حل عداوة البشر**" (القداس الغريغوري).

وهكذا تترجم هذه العبارة التعليم الرسولي، فقد أبطل العداوة بين الشعوب بالصليب وقتل العداوة (أفسس ٢: ١٤ - ١٦)، والعدو هو اسم الشيطان (لوقا ١٠: ١٩ راجع متى ١٣: ٣٩)، ولذلك لا يمكن أن يطلق على الله لأنه اسم للموت (١كو ١٥: ٢٦)، والله هو الحياة. والذي خلق العداوة فينا هو الشر والخطية، ولذلك يقول الرسول: "وأنتم الذين كنتم قبلاً أجنبيين وأعداء في الفكر في الأعمال الشريرة" (كولوسي ١: ٢١). لقد جاء المسيح وصالح الأعداء أي البشر مع الله الذي هو السلام والمحبة "قد صالحكم الآن في جسم بشريته بالموت ليحضركم قديسين وبلا لوم ولا شكوى أمامه" (كولوسي ١: ٢١ - ٢٢)؛ ولذلك السبب تبدأ الأنا فوراً بصلاة الصلح، فهي خدمة أو ليتورجية المصالحة (٢ كو ٥: ١٨)، والقبلة الرسولية هي علامة المصالحة، أي المغفرة المتبادلة بين الذين وقعوا في فخ الخصومة، وإلاَّ تعذر على هؤلاء ليس التناول فقط، بل الصلاة نفسها .. وهكذا تعلن الكنيسة بالكلمة وبالممارسة أن الغفران هو مصالحة .. مصالحة الأعداء أي البشر

مع الله الذي لم يكن عدواً لنا بالمرة، فهو ليس مثل الشيطان أو الموت .. بل لقد صالحنا الآب لنفسه في يسوع المسيح (٢كو ٥: ١٨) وصالح الله الكل في المسيح (كولوسي ١: ٢٠) ولم يكن الآب هو العدو؛ لأن العداوة شر، والشر لا يجب أن ينسب إلى الله بالمرة، ولا يجب أن نضع ظلمة الشر في الله الذي هو نور المعرفة والحياة والسلام والصلح.

رابعاً: الطهارة والتطهير:

ورد الفعل والاسم على الأقل ١٢٥ مرة في القداسات القبطية الثلاثة، فهو أحد الأفعال الأساسية في الكتاب المقدس عن الغفران والفداء، وهو تطهير وطهارة الخاطئ. ويستطيع القارئ أن يراجع نهايات صلوات القسمة حيث تذكر الصلوات "طهارةً لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا"؛ لأن المسيح هو "طُهر العالم". وعن يوم التطهير تنبأ حزقيال النبي (٣٦: ٣٣) مؤكداً أن المسيح سوف يصنع "تطهيراً بنفسه لخطايانا" (عب ١: ٣) وأنه سوف يطهِّر الكنيسة بالحميم الثاني (أفسس ٥: ٢٦) والاغتسال بمعناه الروحي بالتوبة والصلاة والدموع هو الذي يطلبه داود بعد أن سقط في الزنا (مز ٥١: ٥)، ولكن الذي يطهرنا هو دم ربنا يسوع المسيح (١ يوحنا ١: ٧)، وهو ذات الدم الذي نأخذه في كأس الشكر لكي نتطهر به من كل خطية "اللهم الذي قدَّس هذه القرابين، طهِّرنا نحن أيضاً يا سيدنا من خطايانا الخفية والظاهرة، وكل فكر لا يرضي صلاحك يا الله محب البشر، فليُبعَد عنا" (قسمة القداس الباسيلي). فهل إذا وردت أفكار شريرة قبل التناول، وأحسسنا بنجاسة هذه الأفكار، هل نتراجع عن التناول أم ندرك حكمة الكنيسة والتعليم الرسولي ونتطهر بالتناول لأن نفس الصلاة تقول: "طهر نفوسنا وأجسادنا"؟ وهذا ليس تواضعاً بل إقرار بالحقيقة التي لا نحب أن نواجهها، وهي أننا مهما كانت درجة الاستعداد عندنا، فان طهارتنا تعود إلى الله. وهكذا تقول صلاة الخضوع للآب: "نسأل ونطلب من صلاحك يا محب البشر لكي إذ طهرتنا كلنا تؤلفنا بك من جهة تناولنا من أسرارك المقدسة".

جهلٌ أم استبداد؟

لم نشرح موضوع العفو أي المغفرة فهو لا يحتاج إلى شرح .. وتركنا هذه النقطة

بالذات لأنها أضعف جوانب موضوع المغفرة .. كان قداسة البابا كيرلس السادس يقول لنا إن الماء مثالٌ للروح القدس، وهو أي الماء ينقي ويطهر الجسد، والروح القدس يغسل وينقل عنا خطايانا. وكان سند تعليم قداسته، المزمور ٥١، وأحياناً كان يجد سعادة في غسل الأشياء القذرة؛ لأنه كان يتذكر محبة الله وحنانه وهو يغسل قذارة الإنسان. وفي داخل القلب تكمن النجاسة الحقيقية التي قال عنها رب المجد: "من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة زنى فسق قتل .. جهل جميع هذه الشرور تخرج من الداخل وتنجس الإنسان" (مر ٧: ٢٢ - ٢٣). والنجاسة الداخلية لا يصل إليها الماء، ولا حتى الصوم نفسه، بل الروح القدس وحده .. ولا يتطهر الإنسان منها بالاعتراف، بل بالتوبة أولاً وبالمسيح "طُهر العالم كله"، وبالشركة في الأسرار .. وعندما تتشابك وحدة التعليم – الشفاء – الاستنارة – المصالحة — الطهارة، وتدخل كلها تحت اسم الخلاص أو المغفرة، أو أي اسم نختاره، يصبح من الواضح أن الاعتراف هو تعليم واستنارة، وهو شفاء داخلي، وكان يوصف حتى في العصر الوسيط باسم (الطب الروحاني)، ثم هو طهارة. وهذه كلها لا يمكن فصلها عن الحياة المسيحية، عن الإيمان، الصلاة، التوبة الدائمة، المعمودية، مسحة المرضى، الإفخارستيا، التعليم، التوبة والاعتراف. وحصر المغفرة في التوبة والاعتراف وحده ربما عائد إلى الجهل .. ولكن التمسك بالجهل يفتح باباً للاستبداد والبقاء في الاستبداد، وممارسته يجعل الاعتراف سطوة وسيادة، وليس نعمة؛ لأن حصر المغفرة في صلاة التحليل وحدها هي إنكارٌ لعمل الله نفسه في الإفخارستيا التي نقول عنها إنها "لمغفرة الخطايا"، وهنا لا تحل الإفخارستيا محل الاعتراف، بل لأن كلمة مغفرة لها أكثر من معنى، وجب علينا أن ندرك حقيقة حالتنا: هل نحن نطلب الطهارة، أم الشفاء، أم الاستنارة .. أم كل هذه معاً حسب حالتنا؟

الصليب راية المحبة

يفصل الصليب كما ذكرنا بين خير وصلاح الله ومحبته، وشر وجحود وعداوة البشر .. هو نقطة الفصل بين الاثنين، ولا يمكن بالمرة أن نغمس هذا العَلَم العظيم وراية المحبة التي ترفرف على أعظم سارية، وهي الجلجثة في نجاسة الفكر البشري التي تجمعت

في أحقاد ومخاوف وعداوة اليهود وبطش وقوة القانون الروماني معاً لكي تواجه الإله المتجسد وتضع نهاية لرسالته .. ولكن حبة الحنطة كانت وحدها حتى الجلجثة، وعندما ماتت جاءت بثمر عظيم وهو كنيسة المسيح (يو ١٢: ٢٤).

ويفصل الصليب بين صلاح الله الذي غفر للصالبين وعداوة الإنسان "إن كنت ابن الله انزل عن الصليب لكي نؤمن" .. وطبعاً نزول الرب عن الصليب معناه هو أن يفتك ويذبح وينتقم من الذين صلبوه .. ولم يحدث هذا لأن قوة الله ومحبته لا يمكن أن تخضع لشر الإنسان وفساده .. وعلى الصليب لم يتحول الابن الراعي الصالح ومحب البشر إلى مخلوق فاسد يرغب في الانتقام .. ولم تصرح كلمات يسوع السبع على الصليب إلاَّ بالمحبة والغفران .. ولم يتحول نور المحبة إلى ظلمة التشفي، لم ينطفئ نور الآب، بل سطع بجمال في صمت احتمال موت ابنه ولذلك تقول الليتورجية القبطية عن الآب: "لأنه غلب من تحننه وأرسل لنا ذراعه العالية)"، وغلبة التحنن هي تحرك المحبوب والمحب معاً نحو غاية المحبة وهي خلاص الإنسان.

ويتحدى الصليب خطية الإسقاط *Projection* عندما يرى الإنسان صورته لا صورة الله، ويُسقط هذه الصورة على الله، فيرى الله مثل رؤيته للبشر .. مع أن عطية الصورة الإلهية للإنسان في حالة القداسة تجعل الإنسان يدرك كيانه كصورة، ومن هذا الإدراك يدرك خالقه .. وهكذا رغم أننا نسمع عن شراء الله للإنسان في المسيح إلاَّ أن إسقاط الجانب التجاري على هذه الاستعارة غريب على فكر الذين سجلوا لنا الوحي المقدس .. وهكذا عندما تسقط أهواء وخيالات البشرية على الله، فإننا نفشل في إدراك عمق وعلو وطول وعرض محبة الله الفائقة المعرفة.

الصليب يتحدى الوثنية

ما أسهل أن يتصور الإنسان خالقه كما يتصور نفسه وغيره من البشر .. هذه هي الوثنية التي يحذرنا منها العهد الجديد .. وهي خطيرة لأن الوثنية هنا هي الأفكار الخاصة الخاطئة عن الله .. ويتحدى الصليب هذه الوثنية عندما يعلن مجانية كل شيء الغفران والملكوت والتبني .. مجاناً وبلا فضة أو ذهب.

وهكذا يجيء الصليب بنقدٍ حادٍ وقاسٍ للوثنية، وكلما حاولنا أن نضع قناع الوثنية عليه كلما سقط وكشف عن عفونة وفساد الفكر الوثني القديم الذي يتسلل تحت عبارات من رسائل القديس بولس لا تؤيد الآراء التي تقال عن دفع ثمن للآب، وهو ثمن الخطية .. وهذا هو نص وكلمات الرسول بولس: "أم لستم تعلمون أن جسدكم هو هيكل للروح القدس .. **وأنكم لستم لأنفسكم**" (١كو ٦: ١٩)؛ ولأننا لسنا لأنفسنا يقول الرسول مباشرةً: "لأنكم قد اشتُريتم بثمن فمجدوا الله في أجسادكم وفي أرواحكم التي هي لله" (١كو ٦: ٢٠)، فهل ذكر الرسول أن الابن دفع الثمن أو أن الثمن هو ثمن الخطية أم أن **الثمن هو اقتناء** وهو ذات المعنى الذي يذكره الرسول بعد ذلك: "قد اشتريتم بثمن فلا تصيروا عبيداً للناس" (١كو ٧: ٢٣)، وهنا نحن عبيد للرب مثل بولس عبد المسيح (رو ١: ١).

ويقول بطرس الرسول أيضاً مؤكداً ذات المعنى السابق ويقول عن الأنبياء الكذبة "إذ هم ينكرون الرب الذي اشتراهم" (٢ بط ٢: ١)، فهل وردت كلمة الخطية أو حتى إشارةً لها؟ وحتى تسبحة السمائيين في سفر الرؤيا: "مستحق أنت أن تأخذ السفر وتفتح ختومه لأنك ذُبحت واشتريتنا لله بدمك من كل قبيلة" (رؤ ٥: ٩). والشراء بالدم يجب أن يُفهم في نور نص الرسول بولس عن الكنيسة "كنيسة الله التي اقتناها بدمه" (أع ٢٠: ٢٨).

والاقتناء أو الشراء لله بدم الرب، ليس دفعاً لثمن الخطية أو الخطايا، ذلك أن الشراء للاقتناء هو امتلاك، وليس دفعَ ديون، وهذا ما تؤكده تسبحة السمائيين نفسها لأنهم بعد هذه العبارة يقولون: "وجعلتنا لإلهنا ملوكاً وكهنة فسنملك على الأرض" (رؤ ٥: ١٠) .. وتأمل الفرق بين الشراء بحياة أو دم المسيح لنكون ملوكاً، وبين دفع الثمن الذي يحاول الفكر البشري الذي لا يريد إبراز المحبة الإلهية أن يفرضه علينا.

والاقتناء تبرزه الليتورجية إذ نقول في القداس الباسيلي بعد استدعاء الروح القدس: "أذكر يا رب كنيستك هذه التي اقتنيتها لك بالدم الكريم الذي لمسيحك". وهنا يشير بيديه إلى الدم، أي كأس الإفخارستيا الذي لو كان قد دُفِعَ ثمناً لخطايا، لتعذر أن يكون على المذبح؛ لأن الثمن الذي يعطى للآب عن خطايا البشر لا يمكن أن يعطى للبشر .. ولكن هكذا نستعير كلام الشيع البروتستانتية دون تمييز لكي نقضي على سر الإفخارستيا.

يقول الرسول بولس إننا خُتِمنا بروح الموعد القدوس، ولاحظ ماذا يقول الرسول بعد ذلك: "الذي هو عربون ميراثنا لفداء المقتنى لمدح مجده" (أفسس ١: ١٣ - ١٤)، وهكذا أخذنا الروح كعربون لما سوف نرثه لكي يفتدى ما اقتناه الله لكي يزداد مجد الله ويُمدح غنى رحمته .. فهل دفع الروح القدس ثمناً؟ .. أليست كلمة عربون هنا رغم اتصالها بالشراء والاقتناء وهو مقدم الثمن، دُفِع للإنسانية وليس لأحد آخر .. ألا يجدر بنا أن نترك هذه الآراء التي تكبل الإنجيل وتمسخه وتحوله إلى عملية تجارية .. وكيف يقول الرسول بعد ذلك في نفس الرسالة "لأنكم بالنعمة مخلصون .. وهذا عطية الله" (أفسس ٢: ٨)، فكيف يمكن أن نقبل بعد ذلك أي تفسير يناسب فكر الإنسان الذي يندر أن يعطي مجاناً؟ ألا يجدر بنا أن نراجع تلك الأفكار والتعاليم التي وردت إلينا من الشيع البروتستانتية، ونغتسل منها؟!

الوسائل السبعة لمغفرة الخطايا كما شرحها العلامة أوريجينوس في عظاته على سفر اللاويين

"والآن اسمعوا ما هي وسائل غفران الخطايا في الإنجيل:

الوسيلة الأولى: هي تلك التي بها ننال مغفرة الخطايا أي المعمودية (مرقس ٨: ٤).

الوسيلة الثانية: هي الاستشهاد.

الوسيلة الثالثة: تقديم (أو عطاء) الصدقة؛ لأن المخلص يقول: أعطِ مما لديكم صدقة ويكون كل شيء نقياً" (لوقا ١١: ٤١).

الوسيلة الرابعة لمغفرة الخطايا: هي أننا نحن نغفر الخطايا. عندما نغفر خطايا الأخوة لأن الرب والمخلص نفسه قال: "إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوي، وأن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم السماوي أيضاً زلاتكم) (متى ٦: ١٤ - ١٥)، ولهذا علَّمنا أن نقول في الصلاة: "أغفر لنا ما علينا كما نغفر نحن أيضاً لمن له علينا" (متى ٦: ١٢).

الوسيلة الخامسة: هي عندما "يرد أحد خاطئاً عن طريق ضلاله، فإنه يخلص نفساً من الموت ويستر كثرة من الخطايا" (يعقوب ٥: ٢٠).

وتوجد وسيلة سادسة للمغفرة: وهي فيض المحبة. إن الرب نفسه يقول: "الحق أقول لك أن خطاياها الكثيرة قد غُفِرت لها لأنها أحبت كثيراً" (لوقا ٧: ٤٧)، ولأن الرسول يقول: "المحبة تستر كثرة من

الخطايا)" (١ بطرس ٤: ٨).

ولا زالت توجد وسيلة سابعة لمغفرة الخطايا، أي بالتوبة: وهي وسيلة صعبة وشاقة، عندما يسكب الخاطئ دموعه ويبلل وسادته بالدموع (مز ٦: ٧)، وتصبح دموعه طعامه ليلاً ونهاراً (مزمور ٤١: ٤)، وعندما لا يخجل من أن يعترف بخطاياه لكاهن الرب، ويطلب منه الشفاء، حسب كلمات الذي قال: "اعترف لك بخطيتي ولا أكتم إثمي. قلت أعترف بذنبي وأنت رفعت خطيتي" (مزمور ٣٢: ٥)، وهو ما يقول عنه الرسول يعقوب: "أمريض أحد بينكم فليدع قسوس الكنيسة لكي يصلوا عليه وإذا كان قد فعل خطية تغفر له" (يعقوب ٥: ١٤-١٥).

(Origen, Homilies on Leviticus 1-16)

(الترجمة الانجليزية سلسلة آباء الكنيسة مجلد ٨٣ الناشر الجامعة الكاثوليكية – واشنطن أمريكا ١٩٩٠ ص ٤٧-٤٨).

+ + +